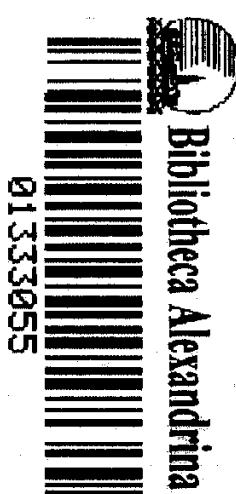


أحمد عثمان

تاريخ الدهون

الجزء الثالث

مكتبة الشروق



نَاجِيَةُ الْبَهْوَى

مكتبة الشرق : ٢ - ش. البورصة الجديدة - قصر النيل

أحمد عثمان

ناتج الهدى

الجزء الثالث

مكتبة الشروق

مقدمة

يستعرض أحمد عثمان في هذا الجزء تاريخ اليهود منذ قيام الإمبراطورية العثمانية حتى قرنا الحالي ..

فيبدأ بلجوء اليهود بعد سقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس إلى استانبول - مقر الخلافة الإسلامية الجديدة - وإلى المغرب وتونس ومصر - وليس فلسطين ! وكيف حصلوا على فترة من الراحة والاستقرار والازدهار ، حتى أن چوزيف ناسي مستشار سليمان القانوني - أحد أعظم حكام العالم - كان يهودياً . وحصل ناسي على امتياز استغلال طبرية .. ولكن رفض اليهود الإقامة هناك - لعلهم وحاجاتهم ذلك الوقت لم يفهموا من التوراة أنها أرضهم الموعودة ! - بل يذهب المؤلف لأنه لو لا الخلافة العثمانية لباد اليهود من العالم ، سواء بالقتل أو التنصير .

ثم يتناول مسألة يهود الخزر ، وكيف كذب يسجن على العالم علينا عنده ادعى أن آجداده بنوا الأهرام .. فقد كانت هناك قبل دخول بنى إسرائيل مصر ، ثم إن يسجن ليس من نسل بنى إسرائيل ، وهذا ما أكدته مخطوطات معبد عزرا اليهودي بمصر القديمة .

يصل المؤلف لعصر النهضة الأوروبية ، فيبدأ بداعية الإصلاح مارتون لوثر ، وكيف أمل أن يتبعه اليهود ، ثم كيف انتهى به الأمر لأن يكتب رسالتين « اليهود وأكاذيبهم » ، « الإسم غير المنطوق » .

زادت أهمية اليهود مع ظهور البنوك - فالكنيسة ذلك الوقت حرمت الربا - وبدأت سيطرتهم على أسواق المال مما زاد كراهية الشعوب لهم ، وتكرر مصادرة أموالهم وطردهم من أوروبا ، حتى قامت الثورة الفرنسية

فابتداً اليهود في الحصول على حقوق المواطن في فرنسا ثم بقية أوروبا ،
بدرجات متفاوتة .

ويروى قصة المسيح اليهودي المزعوم - شابنای زيفي - الذي ظهر في
القرن السابع عشر ، إلام دعا في البداية وإلام في النهاية .

ثم يتطرق إلى تحرير التصوير في التوراة ، كيف تتطور لسيطرة اليهود
على عالم التصوير .

كذلك يتطرق لما أشيع في أوروبا من تقديم اليهود الأضحية البشرية ،
فهل حدث هذا ؟ أم نسجته كراهية اليهود التي بدت واضحة في الأدب
والأساطير الشعبية في أوروبا ؟

ويتساءل .. هل يريد اليهود الذريان في المجتمعات التي يعيشون فيها ، أم
أن زعماءهم وحاخاماتهم يصررون على أسطورة الشعب المختار .

ويصل لهرتزل ، نبى اليهود العلمانى - الذي مات على الأرجح
بالزهرى - والذى كان يدعوه في البداية لتنصير كل اليهود ، وخلفه وايزمان
الذى حصل على وعد بلغور .

ويختتم الجزء بشلاة فصول : أرض الميعاد ، هل هي أمريكا أم
فلسطين ؟ ؛ ثم اليهود وهتلر ، ثم ماذا بعد ؟

وسيصدر قريباً الجزء الرابع عن المغامرة الصهيونية في القرن العشرين ،
من استجداء وطن قومى للبيهود إلى إسرائيل الكبرى والتهديد
بالسلاح النووي .

الإمبراطورية العثمانية ملجاً للطوائف اليهودية الهازبة من إسبانيا

كان ظهور الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر وحلولها مكان الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوروبا ، بمشابهة طوق النجاة الذي عثر عليه اليهود الهازبون من إسبانيا بحثاً عن موطن جديد يأويهم . فبينما أغلقت معظم الدوليات الأوروبية المسيحية أبوابها في وجه القادمين ، راحت أبواب العثمانيين تنفتح على مصراعها ترحيباً بهم على أرضها . وفي ظل الإمبراطورية العثمانية التي استمرت خمسة قرون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، حصل اليهود على أطول فترة من الاستقرار الاجتماعي استطاعوا تحقيقه في كل تاريخهم .

ففي وقت كان العالم الإسلامي وصل فيه إلى أقصى درجات الضعف والتفكك بعد سقوط الخلافة العباسية عام ١٢٥٨ ، ولدت إمبراطورية إسلامية جديدة أقامها العثمانيون الأتراك الذين قصوا على الإمبراطورية

البيزنطية وأعادوا لبلاد الأناضول مجدها القديم ، فقد كانت بلاد الأناضول - في آسيا الصغرى - من مناطق الحضارات القديمة ، يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف عام ، وهي عرفت باسم « بلاد الحيثيين » في الأزمنة القديمة عندما نشب الصراع بينها وبين الفراعنة المصريين للسيطرة على شمال سوريا ، وكانت آخر معركة بينهما هي التي خاضها رمسيس الثاني ، آخر عظماء الملوك المصريين القدماء . ثم انهارت مملكة الحيثيين خلال القرن الثاني عشر السابق للميلاد أمام هجمات أقوام البحر الذين قدموا من الجزر الإغريقية . وعلى إثر سقوط مملكة الحيثيين تقسمت الأناضول إلى دواليات صغيرة ، وظلت في حالة من الضعف إلى أن استولى عليها الفرس عام ٥٤٦ قبل الميلاد وكانت يغون العبور إلى أوروبا من هناك . ثم جاء الاسكندر المقدوني ليطرد الفرس ويحل محلهم عام ٣٢٣ ق . م ، واستمر النزاع بين خلفائه للسيطرة على بلاد الأناضول إلى أن هزمهم الرومان في بداية القرن الثاني السابق للميلاد ، وانقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين ، شرقية وغربية ، قبل نهاية القرن الميلادي الثالث ، وتحولت القسطنطينية إلى عاصمة للإمبراطورية واعتنق الرومان الديانة المسيحية تبعاً للإمبراطور وأصبحت آسيا الصغرى هي مركز الدولة البيزنطية الرومانية الشرقية .

إلا أنه منذ بداية الألف الميلادية الثانية تعرضت منطقة الحضارات

القديمة المحيطة بالبحر المتوسط إلى سلسلة من الهجمات قامت بها قبائل مهاجرة من شرق آسيا وأواسطها أدت إلى تغيير مجرى تاريخ العالم بعد ذلك . فعندما اعتنقت قبائل أوغور التركية الإسلام عند منتصف القرن العاشر ، خرجت من وسط آسيا وسارت غرباً لتشكل إمبراطورية السلجوقية التي سرعان ما خضعت لها بلاد فارس والعراق وسوريا وفلسطين ، كما نازع السلجوقية الأتراك الدولة البيزنطية في الأناضول . إلا أن موجة أخرى من هجرات شرقي آسيا جلبت التتار المغول إلى الغرب خلال القرن الثالث عشر ، مما أدى إلى القضاء على سلطة السلجوقية . وفتحت الطريق أمام هجرات الأقوام التركية إلى بلاد الأناضول التي تفككت إلى ما يزيد على عشرين إمارة صغيرة . وكانت قبيلة « عثمان أوغلو » تمثل واحدة من هذه الإمارات في « بيشينيا » الواقعة في الشمال الغربي بالقرب من مضيق البوسفور .

وبدأت الدولة الجديدة عندما استقل عثمان التركي في بداية القرن الرابع عشر بحكم المنطقة التي كان يسكنها ، ثم راح يعمل على توسيع رقعة أرضه ، وتمكن قبل موته مباشرة من ضم مدينة بورصة الواقعة إلى الغرب ، ومن ثم جعلها ابنه أورخان عاصمة له ، ثم انتزع أورخان بعض الأراضي الخاضعة للدولة البيزنطية ، وأضاف إليها مناطق كانت في يد التركمان . واستمر العثمانيون في محاولاتهم الناجحة في توسيع رقعة

سيطرتهم ، وكانت بداية غزوهم موجهة غرباً إلى الساحل اليوناني .

ومع استيلاء العثمانيين على البلدان التابعة للدولة البيزنطية خضعت الطوائف اليهودية المقيمة بها إلى السلطة العثمانية الجديدة . وكانت أول طائفة يهودية تقع تحت السلطة العثمانية هي الطائفة المقيمة في « بورصة » أول عاصمة للدولة العثمانية . وجاء الحكم العثماني ليرفع عن كاهل اليهود سوء المعاملة التي كانوا يلاقونها من السلطات البيزنطية . ثم صدر فرمان سلطاني يخول اليهود بناء معبد لهم كما سمح لهم بالقيام بالأعمال التجارية من دون قيود وشراء العقارات - وكانت محرمة عليهم من قبل - مقابل دفعهم للخارج . وسرعان ما انضم إلى يهود بورصة مهاجرون يهود جدد جاءوا من فرنسا والمانيا وإيطاليا وبعد سقوط الأندلس من إسبانيا والبرتغال . وكانت معاملة العثمانيين لأهل الذمة من المسيحيين واليهود تتصف عموماً بالتسامح ، فلم تكن هناك أى محاولة لاجبارهم على التخلّى عن اعتقاداتهم الدينية أو منعهم من القيام ببعض ممارسة شعائرهم المقدسة ، وإن فرض عليهم دفع الخارج . وكانت مسئولية الطوائف في دفع الخارج والحفاظ على الأمن العام تعتبر مسئولية جماعية ، وكانت الدولة لا تتدخل إلا لحماية طائفة يتم الاعتداء عليها من قبل طائفة أخرى .

وبدأ الاحتلال العثماني للمدن الواقعة على الجانب الأوروبي للإمبراطورية البيزنطية عند منتصف القرن الرابع عشر ، بقيادة سليمان - ابن أورخان - الذي تمكن من الاستيلاء على مدينة غالاتي . ثم استولى السلطان مراد على أنقرة وحولها إلى عاصمة له بدلاً من بورصة في ١٣٦٥ ، فأصبحت أكبر مدن الإمبراطورية وصار فيها أكبر الطوائف اليهودية في البلقان . وتبع مراد الأول وبايزيد الأول السياسة نفسها بتوسيع نفوذ دولتهم في أوروبا ، فهاجم بايزيد بلغاريا وحارب المغول عند انغورا فجاء مهاجرون يهود من هنغاريا (المجر) كان لودفيك ملك المجر طردهم ليعيشوا في بلغاريا ، وفي المرحلة الأولى تم الاستيلاء على جميع الأراضي التابعة للدولة البيزنطية الواقعة غرب القسطنطينية ، قبل أن تبدأ عمليات مراد ضد البلغار والصرب . وتابع بايزيد الحرب ضد الهنغار وجنوب اليونان وكان السلاطين الأوائل يقودون المعارك بأنفسهم . وعندما استولى السلطان محمد الأول على أزمير هاجر إليها اليهود وكونوا طائفة هناك .

استمر العثمانيون في فتوحاتهم الأوروبية فاحتلوا فيليوبوليس وصوفيا (في بلغاريا) ومدناً أخرى . ثم استولى السلطان مراد الثاني على سالونيكي وإيونيا ومناطق أخرى في Albania ، وكان مراد الثاني أول من جعل اليهود يرتدون لباساً خاصاً . فكان عليهم ارتداء ملابس طويلة مائلة لما كان يرتديه اليونان والأرمن ، وكانت قبعاتهم صفراء بينما كانت

قبعات الأتراك خضراء . وتوج العثمانيون انتصاراً لهم على بيزنطية بالاستيلاء على القسطنطينية على يد محمد الثاني (الفاتح) في عام ١٤٥٣ مما وضع كل منطقة البلقان تحت السيطرة العثمانية ، فتحول اليهود إلى القسطنطينية التي صارت مركزاً مهماً لهم ومقرًا للحجر الأكبر . وتحسن أحوال اليهود الاقتصادية والدينية كثيراً عما كانت عليه تحت الحكم البيزنطي مما أدى إلى مجع المهاجرين اليهود من فرنسا والمانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وكان السلطان محمد الفاتح سابع حكام العثمانيين هو الذي أكمل الاستيلاء على أراضي الأناضول عام ١٤٦٥ .

وفي السنوات السبع التي تلت الاستيلاء على القسطنطينية ، تمكّن محمد الفاتح من ضم بلدان الصرب والبوسنة وألبانيا وكريمسيا وجزر بحر إيجة إلى الإمبراطورية العثمانية ، وكان العثمانيون منذ بداية حكمهم وحتى عهد بايزيد الثاني يحصرون اهتمامهم في مد سيطرتهم على الأراضي الأوروبية . إلى أن قام سليم الأول - ثامن السلاطين العثمانيين الذي أجبر أباه بايزيد على التنازل عن العرش - بتوجيه اهتمامه إلى بلدان الشرق الإسلامية، بعد أن نظم جيشاً من الفرسان ووحدات من المرتزقة . وكان المماليك يسيطرون على مصر والشام والجزيرة . شن السلطان سليم حرباً ضد الفرس واستطاع الاستيلاء على كردستان وشمال العراق ، ثم

مد سيطرته على كل العراق بعد ذلك . كما تمكن من السيطرة على أذربيجان لبعض الوقت . وهو الذي حارب المماليك عام ١٥١٦ و هزمهم فاستولى على سوريا و فلسطين ثم أخضع مصر والجهاز ، و سرعان ما أتبع هذا بإرسال قواته إلى اليمن . و تمكن العثمانيون أخيراً - في عصر السلطان سليم - من هزيمة الهنغار المجر في شرق أوروبا ، بل أنهم حاصروا مدينة فيينا لاحقاً وإن لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . وكان الأتراك يعتمدون على عناصر أوروبية من الألبان والسلاف واليونان لقيادة جيوشهم العسكرية .

و حصل اليهود على بعض المناصب المهمة في الدولة خصوصاً تلك التي تتعلق بالمسائل المالية ، فعين السلطان سليم أحد يهود القسطنطينية إبراهيم كاسترو وزيراً للمالية مسؤولاً عن سك العملة في مصر ، كما كان ولاة مصر العثمانيون يختارون شخصيات يهودية للقيام بالأعمال البنكية .

وعندما اعتلى سليمان القانوني السلطة عام ١٥٢٠ - بلغت الإمبراطورية العثمانية في عهده أوج عظمتها - قام بإعادة بناء أسوار مدينة القدس التي لاتزال بقائها موجودة حتى الآن . وهو الذي بدأ نظاماً دبلوماسياً جديداً لإعطاء الامتيازات لرعايا الدول الأجنبية عند تواجدهم في بلدان غير أوطانهم ، فعقد الاتفاques مع بعض الدول الأوروبية يحصل

بمقتضاهما رعایاها على حماية خاصة عند وجودهم في أراضٍ تخضع للدولة العثمانية وتتوجب حمايتهم وحماية أملاكهم ، واستفاد اليهود الذين قدموا من هذه الدول من تلك الامتيازات فأصبحوا محميين .

وسرحت الفرصة لليهود لاستيطان بعض أجزاء فلسطين في عام ١٥٦١ ، عندما منح السلطان سليمان مستشاره اليهودي دون چوزيف ناس امتيازاً على مدينة طبرية الواقعة على الساحل الغربي لبحيرة طبرية مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً . واستطاع چوزيف استجلاب اليهود وتوطينهم هناك ، ومع هذا فشل هذا المشروع لعدم اقبال اليهود على الحياة في هذه المنطقة الفقيرة ، ومع نهاية القرن السادس عشر كانت غالبية اليهود نزحت عن الأراضي الفلسطينية ، وأصبحت طبرية أطلالاً خلال القرن السابع عشر .

واستمرت السياسة العثمانية في توسيع رقعة الإمبراطورية قائمة حتى أواخر حكم السلطان سليمان ، فقادت الجيوش العثمانية في أوروبا بغزو هنغاريا (المجر) والاستيلاء على عاصمتها بودان (التي سميت بودابست بعد ذلك) عام ١٥٢٦ ، وهرب سكانها ولم يبق إلا اليهود الذين رجعوا بالجيش العثماني وقدموا إليه مفاتيح المدينة ، واستمر الحكم التركي للمجر حوالي ١٦٠ عاماً ، كما مد العثمانيون سلطانهم من مصر غرباً فاستولوا على ليبيا وتونس والجزائر ، وإن لم يتمكنوا من اخضاع دولة

المغرب ، فنزع اليهود المهاجرون من إسبانيا للإقامة في هذه المناطق .

يدل تاريخ اليهود - بسبب كونهم دائماً يمثلون أقلية دينية واجتماعية في البلدان التي يعيشون فيها - على أن حالتهم المعيشية تتوقف على نوع المعاملة التي يتلقونها من السلطة السياسية التي يعيشون في ظلها وما لا شك فيه أن اليهود كانوا يتعرضون لعمليات من الاضطهاد المستمر من قبل السلطات المسيحية الأوروبية بهدف القضاء على الاعتقادات اليهودية نفسها من خلال تعميد اليهود للدخول في الكنيسة المسيحية ، وكل الدلائل تشير إلى أن هذه السياسة كانت تتبع - عدا في بلاد العزر القوقازية - لو لا ظهور الدولة الإسلامية منذ القرن السابع التي ساوت بين اليهود المضطهددين ومغضديهم من المسيحيين في اعتبارهم ذميين من أهل الكتاب . ولهذا كان اليهود يهربون دائماً إلى البلدان الإسلامية حيث عاشت غالبيتهم ، إلى أن بدأت حركات التحرر الأوروبية منذ انتصار الثورة الفرنسية فساوت بين اليهود وغيرهم من المواطنين في المعاملة ، وإذا كان اليهود حصلوا على العلم في بغداد والقسطاط والأندلس ، وحصلوا على المال في معظم البلدان التي عاشوا بها ، فإنهم وبكل تأكيد حصلوا على فترة من الراحة والاستقرار في ظل خمسة قرون من الحكم العثماني .

كيف أصبح الإشكناز هم « الشعب المختار » بدلاً من بني إسرائيل؟!

نحن شعوب لا تهتم بالتاريخ الاهتمام الكافي - مع أنه في أحد التعريفات الحديثة للأمة : ناس لهم تاريخ مشترك - بل وللأسف يخضع التاريخ عندنا للتغيير والتبدل . وعندما كذب مناحم بييجن - رئيس وزراء إسرائيل الأسبق والحاائز على جائزة نوبل ! - أمام العالم كله مدعياً أن أجداده بنوا الأهرام ، لم يجد اهتماماً في الرد عليه بأن بناء الأهرام سبق دخول العبرانيين مصر بقرون طويلة . بل إن بييجن نفسه ليس له علاقة نسب مع أولئك العبرانيين ، فهو بولندي من يهود الإشكناز المنحدرين من قبائل الخزر القوقازية !

عندما تم العثور على مخطوطات البحر الميت - التي تحتوى على معلومات لها أهمية قصوى بالنسبة إلى تاريخ فلسطين - قام المسؤولون عن الآثار في الأردن بوضعها تحت تصرف لجنة من ثمانية أشخاص ليس

بينهم باحث عربي واحد . دون أخذ أي صور أو نسخ عنها ، وعندما سقطت القدس والخطوطات في أيدي الإسرائيлиين أصبح الباحثون في كل مكان تحت رحمة المسؤولين الإسرائيليين – وهم إن اختلفوا عن نظرائهم من العرب – لا يسمحوا بنشر إلا ما يتفق مع تفسيراتهم هم للتاريخ ، ويحجبون كل شيء آخر .

في معبد عزرا بمدينة الفسطاط في القاهرة القديمة – تم العثور على المصادر التاريخية التي تحكي قصة أجداد رئيس وزراء إسرائيل الأسبق من اليهود الإشكناز . فاليهود ينقسمون إلى طائفتين رئيسيتين هما : السفارديم الذين جاءوا من الأندلس – والإشكناز الذين ينتسبون إلى روسيا وشرق أوروبا . والأصل أن اليهود يعتبرون أنفسهم من سلالة إبراهيم عن طريق يعقوب بن إسحاق . وهذا الانتساب السلالى أصبح يشكل شرطاً جوهرياً في الاعتقادات اليهودية ، سواء في ذلك يهودية الكهنة والتوراة أم يهودية الأخبار والتلمود . والسبب في هذا – إلى جانب الاعتقاد بإله واحد ليس له صورة – أن اليهود أصبحوا يعتقدون بأنهم حصلوا على وعد من « يهوه » أن يكونوا وحدهم شعبه المختار من بين الأمم ، وأن دلالة هذا الاختيار هو الوعد الذي قطعه مع جدهم الأكبر إبراهيم عندما رأه في المنام وطلب منه ختان سلالته . ومع أن بني إسرائيل ارتدوا عن الديانة الموسوية لمدة

ثمانية قرون كانوا فيها يسجدون للمعبودات الكنعانية ، إلا أنهم احتفظوا بعادة ختان الأولاد التي تميزوا بها وسط الأقوام الكنعانية والأرامية .

أما بالنسبة إلى الحالات القليلة التي قبل فيها الأخبار اعتناق بعض المنحدرين من سلالة غير إسرائيلية للديانة اليهودية ، فهم اعتبروا أن طقوس القبول التي يقومون بها تمثل - في حد ذاتها - عملية تبني للأجنبى ليصبح متممياً إلى سلالة إسرائيل . لهذا كانت مفاجأة محيرة لأخبار العراق والأندلس عندما وصل إلى علمهم خلال القرن العاشر الميلادى - عن طريق المؤرخين المسلمين - أن هناك شعباً بأكمله ، هو شعب الخزر فى القوقاز الروسية ، اعتنق اليهودية من دون علمهم أو موافقتهم . فكان الانتفاء إلى سلالة إسرائيل شرطاً أساسياً لاعتبار الأفراد من طائفة اليهود ، وظل المسيحيون الأوائل فى فلسطين - وهم طوائف العيسويين والنصارى - جزءاً من الشعب اليهودي إلى أن خرج بولس الرسول إلى الأمم . فقد نشب خلاف كبير بين تلاميذ السيد المسيح ، عندما بدأت الدعوة المسيحية منذ ألفى عام ، بخصوص من يجوز تعميده ليصبح جزءاً من الكنيسة الجديدة ، وبينما أصر بطرس على وجوب اقتصار الدعوة على المختتنين من اليهود ، خرج بولس الرسول لدعوة الأمم ، معلناً أن رسالة السيد المسيح أنهت العهد القديم مع أبناء إسرائيل

ليحل مكانه العهد الجديد الموجه إلى جميع الأمم .

وسرعان ما سقطت دولة الخزر - مع نهاية القرن العاشر - أيام زحف جيوش الدولة الروسية الناشئة ، وتشتت الخزر شمالاً في اتجاه بحر البلطيق في كييف وفي مناطق عددة من روسيا وغرياً في هنغاريا وليتوانيا وبولندا بشرق أوروبا . ولم يعد أحد يسمع شيئاً عن الخزر بعد ذلك ، وساد الاعتقاد بأنهم تركوا اليهودية واعتنقوا المسيحية والإسلام . إلا أنه منذ بداية القرن الحادى عشر ظهرت طائفة يهودية جديدة في المانيا عرفت باسم إشكناز ، الذين لم يتزموا بتعاليم الأحبار التلمودية واقتبسوا الكثير من العادات الاجتماعية من المجتمعات المسيحية التي عاشوا فيها . ولم يكن هؤلاء يخضعون في أمورهم الدينية لسلطة أحبّار اليهود في بغداد ، وكانت لهم تقاليد اجتماعية وطقوس دينية تختلف عن باقي اليهود . وأصبحت كلمة إشكناز تدل على أول منطقة يستقر بها اليهود بكثافة في شمال غربي أوروبا أولاً على ضفاف نهر الراين ، ثم صار التعبير - في اللغة العبرية - يشير إلى المانيا منذ القرن الحادى عشر . في تلك الفترة كذلك - قبل أن تتوحد المانيا - ظهرت اللغة المعروفة باسم « ييديش » بين الإشكناز ، وهي خليط من العبرية والألمانية ، وظهرت منطقة أوروبا الشرقية بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر كموطن لغالبية يهود العالم .

واختار الباحثون عن أصل هذه الطفرة المفاجئة في عدد اليهود : ما هو مصدر الإشكناز اليهود في روسيا وشرق أوروبا والمانيا ، الذين أصبح عددهم يعد بالملايين ؟ ولما تبين للأخبار الربانين أن غالبية اليهود الإشكناز - الذين هم غالبية اليهود الموجودين في العالم الآن - ينحدرون من الخزر الذين اعتنقوا اليهودية خلال القرن الثامن ، وليس من سلالة إبراهيم ، أصبحوا في حيرة لا يعرفون لها مخرجا . ذلك أن جوهر الدعوة اليهودية يقوم على أن اليهود هم سلالة بنى إسرائيل وهم ورثة العهد الذي أعطاه يهوه في المنام إلى إبراهيم . وتخاší اليهود السفاردي الاختلاط مع الإشكناز الذين اعتبروهم من الأجانب ، ولكن هذا الحل لم يفلح إذ كان عدد الإشكناز - وسلطتهم مع مرور الزمن - أكبر بكثير من السفارديم .

ولإذاء هذا ، لجأ كتاب القرون الوسطى إلى وسائلين لإخفاء الأصل الحقيقي للإشكناز : فهم أولاً لجئوا إلى الأساطورة - ولطالما أخرجت الأساطير مؤرخي إسرائيل من المشاكل من قبل - فزعمو أن الخزر أنفسهم كانوا من سلالة إسرائيل وهم يمثلون ما أطلقوا عليه اسم « القبائل العشر الضائعة » ، أي أنهم من الأقوام التي أبعدها الأشوريون من فلسطين خلال القرن السابع السابق على المسيحية . وبالطبع فإن هذا غير صحيح لأن هذه الأقوام القليلة العدد أسكنها الأشوريون في مناطق

مختلفة من أرض مابين النهرين وسورية وسرعان ما اندمجوا في مجتمعاتهم الجديدة ، كما أن قبائل الخزر - المعروف أصلها التركمانى من وسط آسيا - لم يظهر كيانهم في القوقاز إلا بعد ذلك بأكثر من ألف عام . أما الوسيلة الثانية فكانت الإدعاء بأن المانيا هي أرض الإشكناز الأصلية التي منها هاجروا إلى شرق أوروبا وروسيا . وهذا أيضاً غير صحيح ، ذلك لأن المانيا - قبل انهيار دولة الخزر وتشتتهم - لم يكن بها سوى بضعة آلاف من اليهود يقيمون في المراكز التجارية خصوصاً في « ريجينسبرج » بالقرب من ميونيخ ، بينما بلغ يهود بولندا ورومانيا والمجر وروسيا ملايين عدّة .

وجاء الدليل التاريخي عند نهاية القرن التاسع عشر - الذي يؤكّد أن الخزر والإشكناز هم الأقوام نفسها - في جنیزة معبد عزرا اليهودي بمصر القديمة . وكلمة جنیزة (كنيزة بالعربية) - تعبير يطلق على الأماكن التي تخزن بها الكتابات القديمة ذات الطابع الديني التي لم تعد تستعمل ولا يمكن تدميرها لأنها تحمل اسم الإله حسب التقاليد اليهودية ، وهي عادة غرفة مخزن ملحقة بالمعبد . وفي جنیزة معبد عزرا - وكان تم بناؤه خلال القرن التاسع على أنقاض كنيسة قبطية بالقاهرة القديمة - تم العثور عام 1896 على حوالي مئتي ألف صفحة من المخطوطات القديمة ، نقلت كلها خارج مصر إلى المكتبات العالمية .

ووسط هذه المخطوطات تم العثور على المصادر التاريخية - التي وردت فيها قصة أصل اليهود الإسكندر.

تم العثور في جنیزة القاهرة على صورة للخطاب الذي كتبه ملك الخزر يحكي فيه قصة اعتناق شعبه للديانة اليهودية .. وكان حسداي بن شبروت - الذي عمل مستشاراً لل الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث في الأندلس خلال القرن العاشر - أرسل خطاباً إلى يوسف ملك الخزر ، يسأله فيه عن أصل اليهود في مملكته ، وجاء في الرسالة التي رد بها الملك القروقي أن اعتناق الخزر لليهودية تم في أيام الملك بولان قبل مئتي عام ، وأن الخزر هم سلالة يافت ثالث أبناء نوح عن طريق حفيده جومر الذي هو جد القبائل التركية ... وعلى ذلك أوضح الملك انتساب شعبه من الخزر إلى إشكناز صراحة في رسالته على خطاب حسداي خلال القرن العاشر ، وحتى نعرف أصل هذه التسمية علينا أن نرجع إلى ما ورد في سفر التكوين أول كتب التوراة بشأن إشكناز . فقد جاء - عند الحديث عن توزيع شعوب العالم الذين قيل إنهم انحدروا عن أبناء نوح الثلاثة حام وسام ويافت بعد الطوفان - أن بلاد الإشكناز تقع في شرق تركيا في آسيا ، وأن القبائل التركمانية التي تسكنتها انحدرت من جومر بن يافت بن نوح ، بينما ينحدر الإسرائييليون والعرب من أبناء سام : « وهذه مواليد بني نوح ، سام وحام ويافت ، وولد لهم بنون بعد

الطفوان ، بنو يافث جومر .. وبنو جومر إشكناز » . وعلى هذا فإن اليهود الإشكناز - الذين يمثلون الآن أكثرية يهود العالم - ليسوا ساميين ولا هم ينتمون إلى إسرائيل ولا إلى إبراهيم ، ويكون مناحم بيجن وأجداده لا دخل لهم بأهرامات المصريين ولا حتى بأرض بني إسرائيل ولا ببني إسرائيل !

مارتن لوثر بين استبداد الكنيسة الكاثوليكية وتعنت اليهود

تعرضت الكنيسة المسيحية إلى ثورة داخلية كبيرة خلال القرن السادس عشر ، كان لها أكبر الأثر في تطور وضع الطوائف اليهودية في أوروبا الغربية أولاً ثم في الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك . بدأ الكاهن الألماني مارتن لوثر عام ١٥١٧ حركة تمرد إصلاحية عرفت بعد ذلك باسم الحركة اللاحتجاجية « البروتستانت » . وعلى رغم الطابع الديني لهذه الحركة إلا أن نجاحها - الذي أدى إلى ظهور تنظيم كسي بروتستانتي جديد ينافى سلطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية - لم يكن ممكناً من دون تأييد النساء والحكام الأوروبيين لها واعطائهما صفة شرعية ، وكان جوهر الحركة الدينية الجديدة يمثل صراعاً بين رجال الدين في القرون الوسطى وأمراء الأرض والسيادة . ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تتمادى في محاولتها لتصبح هي المصدر الوحيد للشرعية السياسية إلى جانب الشرعية الدينية وفي جميع بلدان الإمبراطورية الرومانية ، إذ

أصبح البابا « يمثل المسيح على الأرض » .

كان رجال الدين منذ ظهور المجتمعات الإنسانية القديمة يمثلون قوة كبيرة في مجتمعاتهم ، والسبب في المركز الخاص الذي حصل عليه الكهنة هو قدرتهم على التأثير في أفراد المجتمع ، فقد كانوا يمثلون حلقة الاتصال بين الإنسان والعبود . فهم الذين كان في إمكانهم التعرف على نوايا العبودات وتفسير التعاليم المقدسة . إلى جانب قدرتهم على الشفاعة لدى العبودات والتأثير فيها لصالح أتباعهم ، وهذا النوع من الكهنوت لايزال قائماً في المجتمعات الحديثة .

وكان رجال الدين في الأزمنة القديمة يتبعون الحكام الذين كانوا عادة يمثلون رجال الحرب وأبطال القتال . وإذا كان الحكام - إلى جانب إنفاقهم على المعابد والطقوس - هم الذين يقومون بتنظيم المجتمع وحمايته في مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية وضمان الطعام والشراب لأفراده ، فهم أيضاً الذين يملكون الأرض التي كانت أهم وسائل الإنتاج .

في الأزمنة القديمة ، وكانوا يحصلون على ضريبة من الأفراد تمثل جزءاً مما ينتجون مقابل حمايتهم والسماح لهم بالحياة والعمل في الأرض ، وكان الحكام - وإن التزموا بتنفيذ القوانين التي يضعها رجال الدين - يعتبرون من سلالة العبودات نفسها ، أصبحوا رؤساء للجهاز

الكهنوتي ومصدراً للقوانين التي تصدر باسمهم ، وفي استطاعتهم تغييرها في أى وقت يشاءون .

ثم جاء موسى فوضع نظاماً لخدمة المعبد وطقوس العبادة – وردت تفاصيله في كتاب « اللاويين » ، ثالث كتب التوراة – وجعل منه الكهنة وراثية في سلالة لاوى ، محاكياً في هذا ما كان متبعاً عند المصريين القدماء . واختار خليفة له من غير الكهنة – وهو يوشع بن نون ليتولى قيادة بنى إسرائيل وأمور الحكم فيهم . إلا أن موت موسى تبعه ارتداد بنى إسرائيل عن دياناته وانخفاض الكهنة اللاويين وحاكمهم يوشع ابن نون . ومع أن يهودية الكهنة – التي جلبها عزرا إلى فلسطين خلال القرن الخامس قبل الميلاد – استندت إلى التوراة في دعوتها ، إلا أنها فرضت علاقة الأفراد بربهم أن تكون عبر كهنة معبد القدس ، وتحولت العبادة اليهودية إلى طقوس كهنوتية أهمها الأضحية التي يقدمها اليهود في المعبد . وفي محاولتهم للخروج من هذا المجال السلوكى الضيق للديانة ، قال الأخبار منذ نهاية القرن الميلادى الأول بوجود تعاليم تركها موسى الرسول ووصلتهم شفاعة ، محدد وتنظم تفاصيل تصرفات الناس ليس في مسائل العبادة فحسب وإنما في السلوك الاجتماعى كذلك ، وعلى هذا جاء التلمود متضمناً ما يجب أن يكون عليه سلوك اليهود في شتى نشاطاتهم . واستمرت يهودية الأخبار من دون منازع إلى أن جاء

القراءون - خلال القرن الميلادي الثامن - في محاولة لتخليص الاعتقادات اليهودية من سيطرة الأنجيل ، فأنكروا أن يكون موسى ترك أى وصايا شفهية ، ورفضوا قبول التلمود واعتبروا التوراة المكتوبة وحدها هي مصدر التعاليم اليهودية في مذهبهم . ومع أن هذه الحركة لاقت بعض النجاح ولا يزال لها بعض الأتباع حتى الآن ، إلا أن يهودية الأنجيل الربانية سرعان ما استردت نفوذها ، خصوصاً بعد أن قام بعض المفكرين المحدثين بشرح وتطوير ما جاء في التعاليم التلمودية .

أما بالنسبة إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فقد ساد الاعتقاد بأن كهنتها حصلوا على مناصبهم وسلطاتهم عن طريق السيد المسيح نفسه ، حيث قيل أنه من هم الحق ليكونوا خلفاء فيحسب الرواية الشائعة إن السيد المسيح عاد إلى الحياة بجسده والتقوى بتلاميذه وأعلن أن « على بطرس أقيم كنيستى » وكلمة « بطرس » باليونانية - وهي اللغة التي كتبت بها أو ترجمت إليها الأنجليل - تعنى « الصخرة » أي على صخرة بطرس تقوم كنيسة المسيح . ومع أن بطرس عارض بولس الرسول فيأخذ الدعوة المسيحية خارج المجتمع اليهودي إلى باقي الأمم ، إلا أن أبياء الكنيسة الرومانية أقاموا حقهم على أساس أنهم خلفاء لبطرس . وهم رددوا قصة - منذ بداية القرن الثاني - تقول أن بطرس جاء إلى روما ونقل الحق الذي أخذه عن المسيح في خلافته إلى كهنتها .. حتى قيل

إن مبني الفاتيكان الحالى أقيم على ضريح بطرس نفسه ، والهدف من هذه الرواية هو إعطاء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الحق الشرعى فى رئاسة العالم المسيحى .

وجدير بالذكر في هذا المجال أن قصة مجع بطرس إلى روما لا يوجد ما يثبتها حتى من قبل مصادر الكنيسة الرومانية نفسها . كما تبين من الترجمة الحديثة التي قام بها الباحث البريطاني اينوك باول لإنجيل متى ، أن الجزء الأخير من هذا الإنجليل - الذي يتضمن قصة صلب الرومان للسيد المسيح وقيامته الجسدية ولقاءه بالتلاميذ حيث أعلن خلافة بطرس - هو إضافة لاحقة ، ولم يكن موجوداً في أي من الأناجيل في مصدرها الأصلي .

وقام الباباوات وال مجالس الكنسية - بناء على السلطة التي استنادوا إليها في خلافة المسيح - باحتكار عملية تفسير الكتابات المقدسة . فبينما اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أن فهم الكتب المقدسة يجب ألا يتم إلا في وجود تفسير الكنيسة لها ، كانت المجمع الكنسي والباباوات الكاثوليك يصدرون من القرارات وال تعاليم ما يجعلونه ملزماً للمسيحيين ، فجاء المصلحون ينكرون حق الكهنة في إصدار التعاليم الدينية ويعلنون الرجوع إلى ما جاء في كتبهم المقدسة فقط .

وظهر مارتن لوثر في ألمانيا مع بداية القرن السادس عشر ، وكانت لا تزال مقسمة إلى إمارات صغيرة خاضعة لنفوذ الكنيسة الرومانية . وبعد دراسة اللغة اللاتينية وبعض اليونانية والعبرية إلى جانب اللاهوت والفلسفة والقانون ، ترك الدراسة وأصبح راهبا ثم عين كاهناً في كنيسة « ويتبيرغ » وكانت نقطة التحول في حياته عندما سافر في بعثة لزيارة روما حيث أمضى هناك شهراً ، وعاد منها مستاء لما شاهد من علامات الانحلال الخلقي وانعدام القيم الروحانية السامية لدى رجال الدين هناك ، وجاء أول مظهر لللاحتجاج الذي قام به لوثر عندما علق بياناً على باب كنيسته يتضمن 95 نقطة تمثل نظريته الجديدة التي أعلن اعتراضه فيها على بعض الاعتقادات والعادات الرومانية الكاثوليكية ومنها بيع صكوك الغفران ، وتعتبر هذه الحادثة بداية الحركة البروتستانتية .

ولما فشلت كنيسة روما في إسكاته لجأ إلى اتهامه بالهرطقة والمطالبة بمحاكمته . فأرسلت إليه عريضة اتهام في آب (أغسطس) 1518 ، تطلب منه المثول أمام المحكمة في روما خلال ستين يوماً للدفاع عن نفسه ، لكنه رفض الرجوع في اعتراضاته التي أثارها كما رفض الذهاب إلى روما . وكان لوثر حصل على تأييد شعبي كبير خصوصاً بسبب معارضته لسلطة كنيسة روما . ولكن الكنيسة الكاثوليكية

أعلنته ومن اتبعه من المتمردين وحرمت نشر تعاليمه وقامت بإحراق كتاباته في مكان عام ، إلا أن فريدرريك أمير ولايته رفض اتخاذ أي إجراء لترحيله إلى روما أو لنفعه من ممارسة دعوته ، وأضطررت روما إلى الموافقة على محاكمته في الإمارة التي يتبعها ، وأصدرت حكماً باعتباره مجرماً ضد الإمبراطورية على أساس أنه هرطوقى يصح قتله عند القبض عليه .

وكان سبب غضب الفاتيكان على لوثر هو اعتراضه على تعاليم الكنيسة التقليدية ، عندما طالب بجعل التجربة الإنسانية الخاصة - وليس الالتزام بتعاليم الكنيسة - محوراً لفكرة الخلاص . وهاجم بشدة صكوك الغفران التي كانت الكنيسة تبيعها للمواطنين لأنها تجعل الناس يعتقدون خطأً بأن شراء هذه الصكوك يكفي للتخلص من نتائج ما يرتكبوه من سيئات وهاجم البروتستانت انعدام القيم الأخلاقية وانتشار الجهل وحب السيطرة على الأمور الدينية وجمع الثروة في تصرفات الكهنة . وأكدوا أن سلطة الكتاب المقدس تعلو على سلطة البابا وكهنته ، وأن الإيمان الحقيقي أهم من السلوك والمظهر الخارجي . كما نادوا بحق كل مؤمن في تفهم النصوص المقدسة بنفسه ، ولهذا قام لوثر بترجمة كتب العهد القديم إلى اللغة الألمانية لتصبح في متناول الجميع . وكان لوثر يعتبر النظام البابوى للكنيسة الكاثوليكية نوعاً من الوثنية ، بسبب استخدام الصور والأعمال الفنية في الكنائس ، ولم يكن اعتراض لوثر على الأعمال

الفنية نفسها - التي تمثل إلهاماً فنياً يعمق من الإحساس الديني والروحي - وإنما على استخدام هذه الأعمال كالأصنام يسجد المصلون أمامها . وكانت الكنيسة الكاثوليكية وضعت جسداً يمثل السيد المسيح فوق الصليب وكذلك صورة تمثل السيدة مريم وهي تحمل طفلها داخل أماكن العبادة في مواضع الصلاة ، بحيث تصبح كالأصنام المعبودة ولذلك نجد أن الكنائس البروتستانتية تخلو من هذه الأعمال . كما صرخ لوثر بإمكان تعدد الزوجات في بعض الظروف عندما أيد حق فيليب أمير مقاطعة هيس في زواجه الثاني معلناً أن التزوج من التنين أفضل من الطلاق ، وكان وافق على تعدد زوجات هنري الثامن ملك إنجلترا . بل إن لوثر نفسه تزوج - على خلاف الكهنة الكاثوليك - من راهبة سابقة .

ولم ينقد مارتن لوثر من غضب البابا سوي وقف الأباء الألمان إلى جانبه ودفعهم عنه ، بعد أن وجدوا في نشاطه فرصة للتخلص من نفوذ الكنيسة الرومانية . وكان لوثر في كتاباته يعارض حق الكنيسة في وضع نفسها خارج نطاق الحكم . وانتشرت الحركة اللوثرية في بلاد الألمان وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وال مجر ، كما أعلن ملكا الدنمارك والسويد أن اللوثرية هي مذهب بلادهما . وسرعان ما انتشرت الحركة الاحتجاجية التي بدأها لوثر إلى شمال أوروبا وتطورت إلى أن أصبحت كنيسة مستقلة بعد ذلك عندما انشقت على الكنيسة الكاثوليكية ، كما شجعت أراؤه

المصلحين الاجتماعيين على المطالبة بإصلاحات في القوانين الاجتماعية كذلك .

وفي المرحلة الأولى من نشاطه عارض لوثر اضطهاد اليهود ، وكان يأمل بأن يتبعه عدد كبير منهم في اعتناق مذهب الإصلاحى ، فكان يوجه دعوته إلى المسيحيين واليهود سوياً ، مما جعل الكنيسة الكاثوليكية تعتبره « نصف يهودي » . كما رحب به اليهود في البداية بسبب هجومه على كنيسة روما ، بل إن بعضهم ذهب إلى حد اعتبار مذهب الإصلاحى يمثل عودة إلى الاعتقادات اليهودية . ومع هذا رفض اليهود دعوته ولم ينضموا إليه . ولهذا فإن لوثر - في المرحلة الثانية لدعوته - أصبح يهاجم عناد اليهود الذين يتمسكون بتفسيراتهم القديمة للتوراة ويرفضون الاعتراف بيسوع المسيح وكتب رسالتين « عن اليهود وأكاذيبهم » و « عن الاسم غير المنطق » ووصف اليهود بأنهم « لصوص وقطاع طرق » و « حشرة مثيرة للاشمئزاز » وهي الأوصاف التي كان ينعت بها خصومه من الكهنة والأمراء ، وكانت كتاباته الأخيرة تهاجم البابوية واليهود .

بزوج عصر النهضة الأوروبية

بعد عشرة قرون من سيطرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على الفكر والسياسة في أوروبا الغربية ، بدأت حركة لتحرير العقل الإنساني في مدينة فلورنسا بوسط إيطاليا . ومنذ أن أصبحت كنيسة روما هي السلطة الدينية العليا في الإمبراطورية بعد اعتناق قسطنطين للمسيحية في القرن الرابع ، تمكّن البابا وال المجالس الكهنوthe من السيطرة التامة على عقول الملايين من المواطنين وتم إحرق الكتب والخطوطات التي رأى رجال الكنيسة فيها مخالفة لتفسيراتهم الخاصة ، واحتفت كتب الفلاسفة الكبار وأعمال الشعراء والمؤرخين وتم تزوير البعض الآخر ليتفق مع آراء الكنيسة . فالأرض مسطحة وهي مركز الكون ، والإنسان ولد من الخطيئة ، والكهنة يملكون حق الغفران ... عشرة قرون من الزمان أجذب فيها العقل والخيال الإنساني عن الإبداع في ظل قيود لا تسمح إلا بسيطرة التفسير الكهنوthe ، ليس فقط بما ورد في الكتب الدينية وإنما لمظاهر الطبيعة وأحداث التاريخ كذلك .

ويبينما كان الخلفاء العباسيون في بغداد يقيّمون المناظرات الفلسفية في

قصورهم ، وتنافس حكام الأندلس في جمع الكتب وإقامة المكتبات ، أصبح مجرد الاحتفاظ بكتاب لأفلاطون أو أرسطو جريمة لا تغفر في إمبراطورية الرومان ، وصدرت الاتهامات بالهرطقة على كل من حاول استخدام العقل في تفسير التوراة والإنجيل . وفي ظل هذه الظروف ، كان من الطبيعي أن يسود اضطهاد الأقلية اليهودية في المجتمعات الأوروبية في القرون الوسطى . ولهذا كان تحرر الفكر الأوروبي من سيادة الكنيسة في عصر النهضة بداية الطريق لحصول اليهود على المساواة الاجتماعية والدينية في تلك البلدان . وكلمة « الرينيسانس » التي تطلق على عصر النهضة هي كلمة فرنسية تعنى « الميلاد من جديد » أو « البعث » واستخدمها المؤرخون للدلالة على الحركة التي بدأت أولاً في المدن الإيطالية خلال القرن الرابع عشر ثم انتشرت بعد ذلك إلىmania وفرنسا وإنجلترا واستمرت حتى القرن السابع عشر .

أدى بروز المدن التجارية في إيطاليا ، في أعقاب الحروب الصليبية إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة من التجار والحرفيين ورجال البنوك استقلوا بحكم مدنهم وسمحوا بحرية كبيرة للأفراد في سلوكهم ، بل إن غالبية الأمراء الجدد هم الذين شجعوا الفنانين والأدباء في خروجهم على القواعد الروتينية السائدة . واتخذت المحاولات الأولى لتحرير الفكر الإنساني شكلاً فيها عندما قام الفنانون في مدينة فلورنسا بمحاكاة النماذج الفنية

الرومانية القديمة في أعمالهم خصوصاً في الرسوم والنحت والعمارة .
كما ظهر دانتي ليكتب شعره على غرار الملحم الرومانية القديمة .
وكان الشعر ، وهو الوسيلة الرئيسية للتعبير الأدبي آنذاك ، قد انحط خلال
العصور الوسطى بسبب اعتراض الكنيسة على خيال الشعراء وتصوراتهم
فأصبح دانتي من أهم شعراء عصر النهضة . وحدثت طفرة كبيرة ليس
فقط في كمية الإنتاج الفكري وإنما كذلك في نوعيته ، عندما رجع
المثقفون إلى نماذج الفكر الكلاسيكي القديم وراحوا يحاكونها في
الأسلوب والموضوع . وعاد الفنانون إلى الأشكال الفنية اليونانية والرومانية
التي سادت قبل العصر الكنسي . وانتشر تعلم اللغة اليونانية بين المثقفين .
وكان لظهور حركة اتصال تجارية بين المدن الإيطالية والشرق الإسلامي ،
وكذلك لهجرة اليهود من إسبانيا إلى غرب أوروبا أثر كبير في وصول
المخطوطات القديمة التي كان العرب حفظوها من الفسياع إلى أوروبا ،
فسادت المعارف الفلسفية عن هذا الطريق وانتشرت المدارس الأبيقورية
والأفلوطينية . وبات الإنسان البسيط هو موضوع الأعمال الفنية والأدبية
واختفت الملائكة والقديسون من لوحات الفنانين ، كما تطور الفكر
السياسي والقانوني ، وأصبح حق الأفراد في تقرير نظم حياتهم بما يتفق
ومصالحهم هو المبدأ الجديد في التعامل : وكان في هذه الفترة أن تحولت
فرنسا إلى أكبر مركز للتعليم في العالم الغربي ، وظهرت الطباعة في المانيا

حوالى عام ١٤٥٠ ، وانتقلت بعد ذلك إلى إيطاليا حيث ظهرت أولى المطابع في روما وفينيسيا . وسرعان ما حل الكتاب المطبوع مكان المخطوط المنسوخ عند بداية القرن السادس عشر ، وأحدثت الطباعة أثراً كبيراً في نشر التعليم مما ساعد على سرعة انتشار أفكار عصر النهضة سواء في إيطاليا نفسها أو خارجها .

وينما كانت الإمبراطورية العثمانية تستعد لإسدال الستار على مرحلة ازدهار الفكر الإسلامي في الشرق ، كان هذا الستار يرتفع في أوروبا الغربية حيث أدى التعرف على خصائص الفكر الكلاسيكي القديم إلى إعادة تفسير كل ما كان يؤخذ من قبل على أنه قضية مسلم بها في أمور المعرفة . وحتى كتب العهد القديم والuhd الجديد أصبحت هي الأخرى موضوعاً للبحث والتدقيق ، فظهرت مدارس جديدة متخصصة في هذه الكتابات على أساس من قواعد اللغة والنقد الأدبي ، خصوصاً في هولندا والمانيا . وفي هذه الأخيرة ، إلى جانب ترجمة النصوص اليونانية القديمة ، تمت دراسة النصوص العبرية والعربية وترجمتها في تلك الفترة .

ولاشك في أنه كان لأفكار عصر النهضة أكبر الأثر في إنجاح الحركة البروتستانتية اللاحتجاجية التي بدأها مارتن لوثر في المانيا .

وكانت فرنسا والمانيا وإنجلترا محكومة بالأمراء الإقطاعيين الذين ظلوا

يتمسكون بنظم القرون الوسطى . لكن الكهنة والموظفين الذين كانوا - بحكم وظائفهم - يقومون بزيارات لإيطاليا ، أخذوا يجلبون معهم الأفكار الجديدة والرغبة في المعرفة . وكان أول ظهور لأفكار عصر النهضة في هذه البلدان في قصور الأغنياء والمدارس والجامعات . وتكونت « كوليج دى فرنس » في باريس عام ١٥٣٠ في عصر الملك فرانسيس الأول .

وانتشرت الدراسات العلمية وتم تأسيس المكتبة الطبية الملكية في لندن إلى جانب أعمال شوسر وشكسبير الأدبية . فكانت الحركة الفنية التي بدأها الرسامون والثاليون والشعراء في المدن الإيطالية خلال القرن الرابع عشر هي التي أكملها بعد ذلك بثلاثة قرون الباحثون والمؤرخون والفلسفه والعلماء في بلدان شمال أوروبا .

وعاد الاعتقاد بسيادة العقل الإنساني ، فإذا كان الإنسان هو أفضل المخلوقات فإن العقل البشري هو أرقى أعضاء هذا الكائن . وأصبحت المعارف الكلاسيكية من الفكر اليوناني والروماني القديم هي القاعدة التي منها انتشرت الفنون والدراسات الجديدة ، فكانت النتيجة ثروة من الإنتاج صارت تمثل أساس الحضارة الأوروبية الحديثة .

ولاشك في أن كل هذا النشاط الفكري كان له أثره الكبير في تحرر الإنسان الفرد إزاء سلطة الأباطرة والباباوات ، وصار من حق كل إنسان أن

يطلع بنفسه على الكتابات الدينية ويتفق أو يختلف مع تفسيرات الكهنة لها وكان لانتشار التعليم أثره الكبير في حلول اللغات المحلية مكان اللغة اللاتينية ، وتمت ترجمة الكتب إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية ، فزاد عدد المتعلمين . وأصبحت العقيدة الدينية تقوم على الإيمان الحقيقي وليس على مجرد حرفية التفسير للنصوص وسلوك البشر .

والطبع فإن دور اليهود في هذه الفترة اقتصر على نقل بعض الكتب والخطوطات من بلاد الأندلس إلى المراكز الأوروبية الغربية . ولكن نظراً إلى وجودهم في طوائف مغلقة داخل هذه الكيانات ، لم يكن لهم دور بالمشاركة في عصر النهضة ، ومع ذلك أدى انتشار الفكر الجديد إلى السماح لليهود بالمشاركة منذ القرن الثامن عشر في أعمال الجامعات والمدارس الفكرية الأوروبية ، حيث ظهر فلاسفة يهود للمرة الأولى في التاريخ ذلك أن يهود الأندلس كانوا يقتبسون مذاهب المدارس الإسلامية كما هي من دون تغيير . ولسوف نرى كيف هيأ عصر النهضة لقيام الثورة الفرنسية بعد ذلك ، وما كان لذلك من أثر كبير في تشكيل النظم الأوروبية الحديثة وفي إطلاق سراح اليهود نهائياً من قيود العزلة والتفرقة العنصرية .

ظهور الأوراق المالية والبنوك يعدم موقف الطوائف اليهودية

كان اليهود داخل الكيان الرئيسي للنظام البنكي منذ بدايته ، وتحول دورهم المكروه سابقاً في القيام بعمليات الربا إلى دور شريف مع ظهور البنوك . والسبب في هذا هو تخريم الكنيسة للاقراض بفائدة ، في الوقت الذي ظهرت حاجة التجار للحصول على تسهيلات مالية ، لإنتمام عمليات الشراء والبيع في مجتمع المدن الجديد وعلى نطاق يشمل دول العالم بأكمله .

فالنشاط الاقتصادي في عالمنا الحديث - سواء كان للمؤسسات التجارية أو غيرها أو حتى للأفراد - يحتاج إلى المعاملات البنكية ، ويعتمد نجاح العمليات الاقتصادية الحديثة إلى حد كبير على وجود نظام بنكي في استطاعته تقديم الخدمات المالية الضرورية لعملاته ، ولا يمكن الاستغناء عن البنوك في نظام السوق الحالي ، حتى الدول التي تبعث النظام الشيوعي بتجدد أنها في حاجة إلى الاحتفاظ بعض الأعمال البنكية

والبنك هو جهاز مالى يحتفظ بالودائع المالية ويقوم بعمليات الإقراض ونقل الأموال عن طريق الأوامر المكتوبة . وللبنوك في النظم الاقتصادية الحديثة دور آخر في تنظيم عمليات السوق ، ذلك أن رجال الاقتصاد الحديث أصبحوا يقولون بوجود علاقة بين كمية النقود المتداولة في السوق مع الأفراد - وكمية البضائع والخدمات المطروحة ، أي الناتج القومي . فإذا زادت النقود عن الانتاج حدث التضخم ، حيث تقل قيمة العملة وترتفع الأسعار . وأدرك رجال السياسة أهمية عامل النقود في السيطرة على المسار الاقتصادي ، فإذا كانت السيطرة على المسار الاقتصادي تعطل العمل على زيادة الطلب وزيادة حجم التعامل في الأسواق ، فإن البنك تقوم بتخفيض نسبة الفائدة التي تحددها على القروض فتزداد طلبات الإقراض ويزداد حجم الأموال المتداولة في السوق فيزيد حجم الشراء والتعامل . أما إذا كانت السياسة الاقتصادية - خوفاً من التضخم - تهدف إلى تقليل الطلب حتى تنخفض الأسعار ، فإنه من الممكن عن طريق رفع سعر الفائدة أن تشجع الأموال في السوق وبالتالي ينخفض الطلب ويقل الشراء . وبالطبع فإن الحكومة تسيطر على تحديد سعر الفائدة وأحياناً قيمة العملة عن طريق البنك المركزي الذي يخضع لها .

ظهرت الأعمال البنكية أولاً في الدولة الإسلامية ، ففي أيام الخلافة

العباسية خلال القرن الثامن انتقل يهود العراق من القرى تاركين أعمال الزراعة واستقروا في المدن الإسلامية الجديدة واحترفوا التجارة وأعمال البنوك . وكان هذا هو الوضع كذلك في مصر الفاطمية. إلا أن مركز اليهود ونشاطهم التجاري تضاءلاً كثيراً في أيام الدولة الأيوبيّة بينما ازدهر النشاط البنكي اليهودي في قرطبة بالأندلس في الفترة نفسها .

ومع بدء النشاط التجاري في أوروبا خلال القرن الحادى عشر - بسبب الحروب الصليبية التي فتحت باب الاتصال بين أوروبا والشرق الإسلامي - بدأ نظام البنوك ، خصوصاً في المدن التجارية التي ظهرت في إيطاليا خلال القرون الوسطى . وكانت وظيفة البنك في البداية القيام بعمليات التسليف وعمليات تغيير العملات . وكان اليهود - بحكم تعاملهم السابق في الريال - أول الناس وأكثرهم اشتغالاً بالمعاملات البنكية ، خصوصاً أن الكنيسة كانت تحرم القروض مقابل فائدة ، وكان الملوك والأمراء يصدرون عمليات باسمهم . وإذا كانت الحروب الصليبية أدت إلى فقدان اليهود لسيطرتهم السابقة على عمليات التجارة بين الدول الإسلامية وغربي أوروبا ، إلا أن سيطرتهم على الأعمال البنكية زادت في هذه الدول .

وفي البداية كانت قيمة العملة تتوقف على نوع المعدن المستخدم في إنتاجها وعلى ثقله ، وكان التعاملون في حاجة إلى خبراء يدللونهم على قيمة العملات المختلفة ، وما يقابلها من العملات الأخرى . ومع حلول

النصف الثاني من القرن الثاني عشر بدأ اليهود ينظمون عمليات تسليف تجارية ، أى القروض غير الموجهة للشخص المحتاج وإنما للتاجر الذى يهدف إلى تحقيق ربح من إتمام صفقة تجارية ، وظهر التعامل بالشيكات والكمبيالات وظهرت أوراق البنوك منذ نهاية القرن الثامن عشر ، أصدرتها بنوك خاصة أولاً ثم تولت الحكومات إصدار العملات النقدية وعداً بدفع قيمتها المعدنية في البداية ، أصبحت بعد ذلك تستمد قيمتها من ضمانات الحكومات والبنوك لها ولا حاجة لاستبدالها بالمعادن .

وأصبحت البلدان تنظم الأسواق لتبادل الأوراق المالية ، ذلك أن الشركات والمؤسسات وكذلك الحكومات والأفراد ، دائماً ما يكونون في حاجة إلى الحصول على كمية من النقود أكثر مما يملكون ، حتى يتتمكنوا من تنفيذ بعض عملياتهم الإنتاجية أو التجارية . ولذلك فهم يقومون باقراض هذه الأموال من السوق مقابل دفع فائدة للمقرض . وقد تصدر الحكومة أو بعض المؤسسات سندات ذات مدة محددة – تكون قابلة للتداول في السوق – وتعطى ضماناً بدفع قيمتها النقدية عند انتهاء المدة إلى جانب الفوائد المقررة عليها . وبالطبع فإن التعامل في الأسواق المالية يخضع لضغوط التفاف المشابهة للتعامل في أي سلعة أخرى ، فهناك من يعرض دفع فائدة أعلى أو تقديم ضمانات أكبر أو يربط الفائدة بمسابقات لربح الجوائز والهدايا . وتقوم البنوك التجارية بأهم دور في سوق الأموال ،

فهي لا تمنع القروض فقط وإنما تلعب دور الوسيط والممول كذلك .

ومن الأمثلة المعروفة لنجاح العائلات اليهودية الأوروبية في مجال الأعمال البنكية عائلة روتشارلد . ويرجع هذا الاسم إلى الدرع الأحمر الذي كان يعلقه مؤسس هذه الأسرة « إسحق الحاتان » على وجهة منزله بمدينة فرانكفورت الألمانية خلال القرن السادس عشر ، وكانت العائلة تقوم بأعمال التجارة وخاصة في التحف والعملات القديمة ، وكذلك في تغيير العملات . وبدأت أهمية العائلة تتزايد عندما نشأت علاقة بين أحد أفرادها « ماير استشنل » وأحد الأمراء الألمان الذي كان يهوى جمع العملات . واستطاع ماير الحصول على ثروة طائلة عندما عهد إليه الأمير « وليام التاسع » بالإشراف على استثمار أمواله وإقراضها للآخرين مقابل عمولة . وتوزعت عائلة روتشارلد بعد ذلك بين ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، وكان التعامل يتم بين فروع العائلة المختلفة لحساب عملائهم من دون حاجة إلى نقل النقود وبمجرد صدور التعليمات مما أكسبهم عنصر السرعة وقلة المخاطرة عند نقل الأموال ، حتى إن الحكومات الأوروبية نفسها كانت تعتمد عليهم في نقل أموالها في الحالات المستعجلة .

وهكذا نجد أنه عند نهاية فترة الظلام الفكري في أوروبا على أثر انهيار نظام القرون الوسطى ، فإن النظام الاقتصادي الأوروبي نفسه كان يتغير بشكل سريع . وبينما أدى ضعف نفوذ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية إلى

تغيير نظرة الحكومات والأفراد إلى الأقليات غير المسيحية التي تعيش بينهم – وأهمها الطائفة اليهودية – فإن التحول الاقتصادي أدى إلى أن يصبح دور الممول اليهودي الجديد أساسياً للطبقة التجارية النامية ولم يعد يعتمد على عمليات الربا القديمة التي كانت من أهم أسباب كره الناس لهم .

ومع بداية النهضة الصناعية عندما بات المنتجون الجدد في حاجة إلى مبالغ طائلة من المواد الخام والأيدي العاملة والتسويق إلى أن يتم حصولهم على ثمن منتجاتهم بعد بيعها ، أصبح دور البنوك جوهرياً في النظام الصناعي الجديد . ومع زيادة أهمية الممولين اليهود ، أصبح هناك الكثيرون منهم الذين حصلوا على مناصب مهمة في الدولة ، والمؤسسات الخاصة . ومع اقتراب الثورة الفرنسية التي غيرت الشكل الاجتماعي والسياسي للحياة الغربية ، فإن نظرة الأوروبيين إلى اليهود تغيرت وظهر الكثير من الأصوات التي تعارض اضطهاد الأقلية اليهودية وتطالب بمنحها المساواة في الحقوق والواجبات مع باقي أفراد المجتمع .

الركود الفكري في السلطنة العثمانية

أصاب الجماعات اليهودية رغم ازدهارها الاقتصادي

كان المهاجرون اليهود وصلوا من إسبانيا والبرتغال خلال حكم بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) ولعبوا دوراً اجتماعياً مهماً خصوصاً في الأعمال البنكية ، وأصبح چوزيف ناسي من أعلام هذه الطائفة مقرباً من السلطان ، ولما صارت القسطنطينية - التي استولى عليها محمد الثاني عام ١٤٥٣ - هي عاصمة الإمبراطورية ومقر القصر السلطاني الذي عرف باسم « الباب العالي » تجمعت اليهود الذين كانوا يقيمون في البلدان التركية وأصبحوا يكونون جالية كبيرة بالعاصمة العثمانية ، وتحسنت ظروفهم الاقتصادية والدينية كثيراً مما كانوا عليه تحت الحكم البيزنطي ، وعامل بايزيد الثاني اليهود معاملة طيبة ، وسمح للهاربين من إسبانيا والبرتغال بالمجيء إلى القسطنطينية بعد أن رفضت الدول الأوروبية استقبالهم ، كما استقر بعضهم في سالونيكي ومصر .

بدأ سليم الأول (١٥١٢) مرحلة جديدة من الغزوات ، بعد أن أجبر

والده على الاستقالة ، وبعد أن بني الأسطول وأنشأ سلاح الفرسان حتى يتغلب على المماليك ، وكانت سلطتهم تمتد على أرض الشام ومصر والحجاز . وبدأ حرب العثمانيين ضد المماليك العام ١٥١٦ وألحق سليم بهم هزيمة كبيرة عند مدينة حلب في آب (أغسطس) وتمكن قبل نهاية العام من الاستيلاء على سوريا وفلسطين ، وسرعان ما سقطت مصر والحجاز في أوائل العام التالي . وجعل السلطان من نفسه خليفة على المسلمين بعد استيلائه على الحرمين الشريفين . وتبعه عام ١٥٢٠ ابنه السلطان سليمان الذي استمر حكمه ٤٦ عاماً ، وهو الذي أصدر القوانين التي تنظم الحكم في الولايات العثمانية ، كما غزا العثمانيون اليمن عام ١٥٤٦ في أيام سليمان الأول ، وإن كانت سيطرتهم هناك لم تستمر طويلاً حيث طردهم الإمام المظفر من صنعاء ١٥٦٩ ، وهو الذي عاقب اليهود لمعاونتهم الأتراك الغزاة ، وبلغت الدولة العثمانية أوج عظمتها خلال حكم السلطان سليمان الذي بدأ نظام حماية الرعايا الأجانب باتفاقات خاصة مع الدول الأجنبية ، واستطاع العديد من اليهود الذين هاجروا من دول أجنبية الإفادة من هذه السياسة بالحصول على امتيازات في الأمن وحسن المعاملة . وعلى العموم كانت الأقليات الدينية تحصل على استقلال ديني واجتماعي داخل الملة (الطاولة) خارج قوانين المجتمع ككل .

استمرت محاولة الأتراك لم نفوذهم إلى بلدان شمال إفريقيا ولم يتمكنوا من السيطرة على مراكش وإن كانوا استولوا على ليبيا وتونس والجزائر . أما بالنسبة إلى العراق فقد واجه العثمانيون مقاومة عنيفة من القوات الفارسية التي كانت تسيطر على بغداد . ومع أن السلطان سليمانتمكن من هزيمة الفرس والاستيلاء على بغداد عام ١٥٣٤ بعد أن كان استولى على عاصمتهم تبريز ، فقد اضطرب العثمانيون إلى تركها بعد حوالي تسعين عاماً بسبب هجمات الفرس إلا أن الأتراك العثمانيين بمساعدة اليهود العراقيين عادوا فاستولوا على العراق مرة ثانية عام ١٦٣٨ وظلت في أيديهم هذه المرة ٢٨٠ عاماً إلى أن تمت هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ . وكافأ السلطان مراد اليهود لمساعدته على هزيمة الفرس ، كما عين رئيس الجالية اليهودية هناك أيزكيل جبائى في وظيفة صراف في حكومته .

بعد النجاح العسكري الذي حققه السلاطين العثمانيون في أيام سليم الأول وابنه سليمان ثم سليم الثاني ، بدأ الضعف يدب في جسد الإمبراطورية المتراوحة الأطراف منذ أيام مراد الثالث .

روجدت الإمبراطورية العثمانية نفسها أمام منافسين جدد عند نهاية حكم السلطان سليمان الأول (١٥٦٦) ، مع ظهور المملكة النمساوية

كفة عسكرية على حدودها الأوروبية غرباً والإمبراطورية الصفوية الفارسية على حدودها الشرقية في آسيا ، وعندما بدأ بطرس قيصر روسيا الموحدة في نهاية القرن الثامن عشر يتطلع إلى السيطرة على المانفذ الموصلة إلى البحر الأبيض ، كانت هذه بداية النهاية بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية التي لم تستمر بعد ذلك إلا بسبب رغبة الأوروبيين في تحقيق الاتفاق فيما بينهم أولاً على كيفية تقسيم الأراضي العثمانية .

ولا شك في أن جوهر المشكلة العثمانية هي أنها لم تحاول تدعيم بنيانها العسكرية ببناء قاعدة اقتصادية قوية ، فالزراعة كانت في يد فلاحين مضطهددين بشكل مستمر مطلوب منهم دفع نفقات الحكم واللصوص كذلك . والتجارة كانت في يد الإيطاليين الذين اشتركوا في تكوين الأسطول البحري . كما أن انعدام وجود طبقة وسطى في المجتمع العثماني منع ظهور بداول إصلاحية جديدة . فالطبقة الوسطى عادة ما تكون طموحة ومتجدة وتعمل على استخدام الثقافة للوصول إلى الجديد من الاختراعات والأفكار . كما أن إهمال اللغة العربية ، بل والشعوب العربية نفسها ذات الحضارة القديمة ، جعل الدولة العثمانية تبدو وكأنها مجرد مغامرة عسكرية ناجحة لم تتمكن من تشييد بناء حضاري . وكانت اللغة العربية هي القوام الأساسي للحضارة الإسلامية حتى في بلاد الأندلس الإسبانية . وعندما أدخل العثمانيون الطباعة إلى

دولتهم عام ١٧٢٧ - وكانت ظهرت في ألمانيا قبل قرنين ونصف القرن - حددوا دورها بطبيعة النصوص التركية وحدها ، لتعليم أولاد الطبقة العليا التي منها يأتي الوزراء والمسؤولون الحكوميون .

واستخدم السلاطين والوزراء العثمانيون عدداً كبيراً من الأطباء اليهود الذين - بسبب هذه الوظيفة - تم استثناؤهم من دفع بعض الضرائب ، كما أنهم استخدمو نفوذهم لدى الحكام لمساعدة الطوائف اليهودية . وكان اليهود تعلموا الطب في الأندلس . ومع مرور الزمن وصلت الأجيال اليهودية العثمانية إلى حال الجهل والأمية نفسها التي أصبحت في بقية الشعوب التي خضعت لآل عثمان ، ولهذا نجد أن زمام النجاح في المرحلة التالية انتقل إلى يد اليهود والإشكناز الذين ظلوا في أوروبا وأشرقوا عليهم شمس عصر النهضة هناك .

شابتاي زيفي : « مسيح ، اليهود الذى اعتنق الإسلام !

فكرة « الخلاص » هي الحلم الذي يداعب الإنسان منذ القدم . ومحوره الاعتقاد بخلود الروح واستمرار الحياة بعد الموت . ولما كانت الاعتقادات الدينية لليهود تقوم على أساس الخطيئة ، خطيئة آدم عندما خالف تعاليم رب وأكل من الشجرة المحرمة ، وخطيئة بنى إسرائيل عندما تركوا ديانة موسى وعبدوا آلهة الكنعانيين ، فإن التوبة عن الذنوب وطلب غفران رب هما الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الحصول على منحة الحياة الأبدية . ولم تكن فكرة الخلاص والأبدية في بدايتها مرتبطة بشخصية المسيح المخلص ، وإنما كان « المسيح » هو أحد القاب الملوك القدماء .

والواقع أن كلمة المسيح لم تكن في أصلها من اللغات السامية ولم يعرفها أبناء إسرائيل في المراحل الأولى من تاريخهم ، وإنما هي كلمة مصرية الأصل . كان المصريون هم الوحيدة من بين الشعوب القديمة الذين يقومون بدهان الملك بالزيوت والعطور عند تنصيبه وقبل جلوسه على

العرش ، كما كانوا يدهنونه بزبدة التمساح - وهي عادة ماتزال موجودة في بلاد النوبة حتى وقتنا هذا - لاعتقادهم بأن هذا سيجلب لهم سلالة قوية . وكان الملك الجديد ، بسبب عملية الدهان هذه ، يتلقى لقب « مسيح » من بين ألقابه ، ذلك أن التمساح بالمصرية القديمة كان يسمى « مسح » وكان اللقب الملكي يكتب باستعمال تمساحين لينطبق « مسيح » وحتى الكلمة الدالة على عملية الدهان بالزيوت « مسح » اشتقت من اسم التمساح المصري وعلى هذا كانت الكلمة « مسيح » عند بدايتها تعني « الملك » وكانت لقباً يطلق على كل الملوك المصريين . ثم بدأ كتاب العهد القديم من العبرانيين يستخدمون هذه الكلمة للدلالة على ملوك بنى إسرائيل ، بداية من شاؤول وداود في القرن العاشر قبل الميلاد ولم يرتبط لقب « المسيح » بدور « المخلص » - أي الذي يدعو الناس إلى التوبة ويعدهم بالحياة الأبدية في مملكة الله - إلا بعد أن رفض بنو إسرائيل الاعتراف بأن يسوع هو « مسيحيهم » بمعنى ملكيهم . فمنذ أن آمن أتباع يسوع بقيامته من بين الأموات ، أصبحت الكلمة « مسيح » تعنى المخلص .

ولم يرد ذكر يوم القيمة والحياة بعد الموت في التعاليم الموسوية التي وصلتنا ، والتي اكتفت بالحديث عن وحدانية الله . وعلى هذا أنكرت يهودية الكهنة وجود حياة بعد الموت ، وإن كان الأخبار بعد ذلك قالوا

بخلود الروح . وكان اليهود يتظرون قيام المسيح على أنه « الملك الممسوح » الذي سينصرهم على أعدائهم ويجعلهم شعب الله المختار ، فيحكمون العالم تحت قيادته . إلا أن اعتقادات أهل القبالة في القرون الوسطى أضفت طابعاً روحانياً على دور المسيح يشبه إلى حد كبير دور يسوع عند المسيحيين ، وفي العبرية يستخدم التعبير « هاميلينغ هامشيع » (الملك الممسوح) للدلالة على المسيح الذي ينتظره اليهود . وهم يقولون إنه سيكون من سلالة داود . وفي القرون الوسطى بعد أن تم طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال ، وفي وقت لم تكن هناك قيادات موحدة ليهود الطوائف المنتشرة في معظم بلدان العالم ، بدأ الشعور بضرورة أن يجتمع اليهود تحت قيادة واحدة من بينهم وأن يتحرروا من سيطرة الغير عليهم . وفي هذه الظروف ظهرت موجة كبيرة معادية لليهود في روسيا وبولندا عندما قام القوزاق الروس بزعامة خميلنيتسكي بمذبحة لليهود الإشكناز ، راح ضحيتها عشرات الألوف في أوكرانيا ، وبولندا في عام ١٦٤٨ ، واستمرت عشر سنوات .

كما كان مذهب القبالة الجديد الذي نادى به إسحاق لوريا خلال القرن السادس عشر - الذي يقول بضرورة الصلاة من أجل مجئ الخلاص - سيطر على الفكر اليهودي في هذه الفترة . وركز أهل القبالة

اهتمامهم على سلوك الزهد والتأمل ، وكانوا يعتقدون بضرورة مجئ المسيح الخالص ، وهم يعملون بتعيدهم على الإسراع في قدمه . ومن دائرة القبالة ظهر «المسيح الجديد» لليهود ، شابتاى زيفى الذى أصبح خلال بعض سنوات أمل يهود العالم فى الخلاص .

ولد زيفى فى مدينة أزمير التركية عام ١٦٢٦ لعائلة من التجار الأغنياء ، ولم يتبع طريق التجارة والأعمال الذى ولد فيه وإنما لجأ إلى طريق الدراسة والتأمل ، فدرس التلمود وفلسفة القبالة ، وأصبح حاخاماً عندما بلغ الثامنة عشرة ، وكانت له شخصية جذابة وقدرة على التأثير فى الآخرين . عاش صباحاً فى مجتمع الدولة العثمانية ، فى عزلة وتأمل يصارع قوى الشيطان ، وكان يقوم بطقوس للعبادة ليس لها أصل فى التقاليد اليهودية وقد تختلفها أحياناً . وشجع ظهور زيفى فى أزمير توقعات الخلاص عند اليهود . وكان هناك اعتقاد سائد آنذاك يقول إن قيوم المسيح وتحقيق الخلاص سوف يتمان فى عام ١٦٦٦ . وأعلن زيفى بأنه هو المسيح المنتظر الذى سيأتى على يده الخلاص ، وأعلن نفسه مسيحاً عام ١٦٤٨ ، بعد سماع أخبار مذابح اليهود فى شرق أوروبا ، وقال إن هذا الأمر أوحى إليه من الروح الإلهية . وغضب أخبار طائفة أزمير على زيفى ، وقام معلمها العبرى چوزيف اسكابا رئيس الطائفة اليهودية فى أزمير بإعلان شابتاي خارجاً على التعاليم اليهودية - بعد أن تم جلده تأديباً .

ولم يرتدع - وطرده من الطائفة ، وطلب من اليهود عدم التعامل معه ، فسافر إلى بلاد اليونان وأقام في سالونيك مدة طويلة ثم انتقل زيفي إلى أثينا والإسكندرية (١٦٦٢) والقاهرة ، وزار القدس عام ١٦٦٥ وتبعه عدد كبير من اليهود إليها . وعند عودته من القاهرة إلى فلسطين قابل العبر ناثان في غزة الذي أعلن أنه تلقى رؤية جاء فيها أن شابтай هو مسيح إسرائيل . وكان لإعلان ناثان الغزاوي - الذي كان الناس يعتقدون بقدرته على معرفة الأسرار - بأن زيفي هو المسيح اليهودي الموعود ، أثر كبير في حركة الشياطين في شباط (فبراير) ١٦٦٥ ، وزاد افتناعهم بأن زيفي هو المسيح الذي ينتظره اليهود ، الذي تنبأ البعض بقدومه عام ١٦٦٦ . وبدأ الاعتقاد ينتشر ليس فقط بين عامة اليهود وإنما بين الأحبار كذلك بأن زيفي هو المسيح المنتظر . واختار هذا من بين أتباعه الذي عشر حوارياً ليمثلوا أسباط إسرائيل .

وفي حزيران (يونيو) ١٦٦٥ طاف زيفي وهو على صهوة حصانه حول مدینه القدس سبع لفات ، بينما كان أتباعه والأحبار يسيرون في موكبه ، وأعلن ناثان الغزاوي ضرورة توبه اليهود لتسهيل قدوم الخلاص وسرعان ماوصلت الأخبار إلى جميع أنحاء المعمورة ، تبلغ الطوائف اليهودية عن عظمة المسيح ، وحلول وقت التوبة والخلاص . وانتشرت الروايات والأساطير الشعبية عن زيفي وكيف أنه بعد فترة من الزمن

سيجلس على عرش السلطان ويصبح مسيح اليهود سلطاناً على العالم ويضع
النارج على رأسه عام ١٦٦٦ بحسب ما قالت التنبؤات . وعاد مسيح
اليهود إلى بلدته أزمير ، واستقبلته جماهير اليهود وأخبارهم في الطريق
بالفرحة والحماس ، ونجتمع حوله عدد كبير من أتباعه بحماس شديد مما
جعل القلق يساور السلطات العثمانية .

وفي صلاة السبت امتنع الأighbors - عن الدعاء للسلطان التركي ،
وجاء دعاؤهم إلى زيفي « المسيح الملك » ، وخلال احتفال ساده الرقص
والغناء وحلت فيه الفرحة ونور الأحلام قام الملك الجديد بتوزيع ممالك
الأرض على من تبعه من اليهود ، وعين الوزراء وكبار رجال دولته
الجديدة ثم اصطحب عدداً من هؤلاء الملوك والأمراء الوهبيين الذين
عينهم معه في رحلته إلى استانبول في أواخر كانون الأول (ديسمبر)
١٦٦٥ ، في طريقه لتولي العرش . ومع أن هذه التعميلية كانت تتم على
هامش التاريخ بعيداً عن الجرى الحقيقى للأحداث فى السلطة العثمانية ،
إلا أن مسيح اليهود وأتباعه كانوا على ثقة تامة من أن المعجزة سوف
تشحقق ويتحول الحلم إلى حقيقة عند وصول زيفي إلى العاصمة .
وعندما بدأ رحلته من أزمير إلى العاصمة ، تم القبض عليه بمجرد وصوله
إلى تخوم المدينة ووضع في سجن غاليسولى ومع ذلك ظل وهو في سجنه
مثل الملوك يستقبل البعثات التي جاءت لتقديم له فروض الولاء وأتى يهود

أزمير - بمن في ذلك الأخبار - ليقبلوا يد زيفي قبولاً منهم بأنه هو المسيح .

وبالطبع فإن السلطة العثمانية - عندما علمت بألمعاصي زيفي وأحلامه - انزعجت من قドومه إلى مركز الباب العالي . فأمر أحمد كوريلى كبير وزراء السلطان بنقل زيفي إلى الديوان وعامله معاملة حسنة واحتجزه في مكان مريح كان يستقبل فيه الزوار الذين جاءوا بهشونه بسلامة الوصول ، ثم استدعاه السلطان العثماني محمد الرابع إلى مجلسه . ويقال أن السلطان خيره إما قبول الموت في سبيل رسالته أو التراجع عن دعوه بأنه المسيح . فأعلن شابتاي إسلامه في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٦٦٦ ، واتخذ اسم « عزيز محمد أفندي » وأعطيه السلطان وظيفة شرفية على أنه حامي حمى باب القصر ومنحه معاشًا . وسرعان ما تبعه عدد كبير من تلاميذه الذين تحولوا هم كذلك إلى الإسلام ، وأصبحوا سلالتهم من بعدهم - الذين استمرا على اعتقادهم بأن شابتاي هو المسيح - يعرفون بين اليهود باسم « الدونمه » بمعنى المرتدين .

وواصل الحبر ناثان الغزاوى ، الذي أصبح يلتقي بزيفي ويتلقي منه التعليمات ، تأكيد أن شابتاي مازال هو مسيح اليهود على رغم إسلامه . وكان شابتاي يمارس الشعائر الإسلامية إلى جانب بعض الشعائر اليهودية التي لا تعارض معها ، وكان يدعو اليهود إلى قبول شريعة الإسلام التي

اعتبرها تمثل « توراة المغفرة ». وسرعان ما انتشر مذهب الشبّاتيين
انتشاراً غير طبيعي في جميع أنحاء المعمورة ووُجد له أتباعاً حি�ثما وجدت
الطوائف اليهودية من القاهرة إلى هامبورج ومن سالونيك إلى اليمن ومن
بولندا إلى بلاد الفرس . ومع هذا قررت السلطات العثمانية نفي زيفى إلى
مدينة صغيرة في ألبانيا ، بعيداً عن العاصمة ، وقضى فيها آخر أيامه إلى
أن مات عام ١٦٧٦ وأصبح يهود العالم بالإحباط بسبب اعتناق
« مسيحهم » للديانة الإسلامية بدلاً من محاولة نشر اليهودية في جميع
أنحاء العالم كما كانوا يعتقدون .

كيف أصبحت بولندا الموطن الرئيسي لليهود الإشكناز ؟

في الوقت الذي استطاع اللاجئون من اليهود السفارديم الهاربين من إسبانيا والبرتغال الحصول على اللجوء الأمين في رحاب القسطنطينية ، ونان اليهود العراق البابليون الأمان وحرية العبادة في رحاب آل عثمان ، بدأ اليهود الإشكناز في بولندا يظهرون في الأفق كقوة فاعلة في التاريخ اليهودي ، على رغم حياة المعاناة والاضطهاد التي عاشوها . وكان القرن السابع عشر هو بداية انتقال مركز الثقل داخل الكيان اليهودي من بقایا سلالة بنی إسرائيل الذين انتشروا في أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، إلى سلالة الخزر القوقازية التي انتشرت في بولندا وروسيا والمانيا . وأصبحت مملكة بولندا - ليتوانيا ، التي كانت تسيطر على أوكرانيا وساحل البلطيق آنذاك ، هي موطن غالبية يهود العالم الذين انحدر من سلالتهم معظم الطوائف اليهودية الموجودة الآن . وبعد انهيار دولة الخزر في القوقاز التي تسميتها المصادر الروسية القديمة « أرض اليهود » انتشرت غالبية الخزر

اليهود إلى أوكرانيا وليتوانيا وبولندا ، وصاروا يشكلون نسبة عالية من سكان هذه البلاد خصوصاً في المدن بعيداً عن الأراضي الزراعية .

كانت الأقوام الروسية بدأت تظهر على الأفق السياسي منذ القرن التاسع الميلادي في المنطقة الممتدة بين البحر الأسود جنوباً وبحر البلطيق في الشمال ، وكانت كييف عاصمة أوكرانيا أهم المدن الروسية في تلك الحقبة الأولى . وعندما سقطت مملكة الخزر في أوكرانيا الروسية وبلدان شرق أوروبا حيث وجدوا موطنهم الجديد هناك ، ومع قدوم المغول التتر من شرق آسيا خلال القرن الثالث عشر ، انهارت إمارات الروسية وأصبحت البلاد خاضعة تماماً للغزاة .. وتم عزل روسيا عن الدولة البيزنطية وعن ساحة الأحداث السياسية في القارة الأوروبية . إلا أن ليتوانيا استطاعت أن تمد سيطرتها على أوكرانيا منذ بداية القرن الرابع عشر ، ومنحت السلطات الليتوانية الجماعات اليهودية امتيازات كثيرة في الأراضي الخاضعة لها .

ظهرت مدينة موسكو عند منتصف القرن الثاني عشر كقرية صغيرة سرعان ما تحولت إلى مدينة كبيرة ثم إلى عاصمة لأهم إمارة روسية ناشئة . وببدأ أمراء موسكو حروبهم لتحرير البلاد من سيطرة التتر ، وجاءت النقطة الفاصلة عندما امتنع إيفان الثالث عن دفع الجزية إليهم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . كما تمكّن من توسيع رقعة

ملكه شرقاً في آسيا وشمالاً في أوروبا ، وفي محاولة منه لتدعيم مركزه تزوج أمير موسكو من ابنة الحاكم البيزنطي ووضع تاجاً على رأسه كما جلس على كرسي العرش تشبيهاً بملوك أوروبا واتخذ لقب قيسار ، وكان إيقان هو الذي وضع نظام الإدارة الروسي الذي استمر العمل به حتى انهيار القيصرية في روسيا .

إلا أن روسيا بعد تخلصها من التتر وجدت نفسها أمام عدو جديد في الغرب هو بولندا التي كانت أكثر تفوقاً من الناحية العسكرية ، وسرعان ما سقطت روسيا تحت سيطرة بولندا التي أصبحت أهم قوة سياسية شرقى أوروبا في ذلك الوقت . ودخل الجيش البولندي مدينة موسكو ، وكادت روسيا تتحول إلى مقاطعة من الإمبراطورية البولندية كانت بولندا تتبع الكنيسة الكاثوليكية بينما تبعت روسيا المذهب الأرثوذكسي . وتمكن تجمع الجيش الوطني الروسي من تحرير موسكو عندما حاصر القيادة البولندية في قصر الكرملين ، وقامت الجمعية الوطنية باختيار القيصر الجديد . ووقع اختيار الجميع على ميخائيل رومانوف ليجلس على عرش روسيا . ثم قام آل رومانوف بطرد القوات البولندية التي كانت ما تزال تسيطر على منطقة أوكرانيا الواقعة بين موسكو والبحر الأسود . وظلوا يحكمون روسيا القيصرية بعد ذلك إلى أن أطاحت بهم الثورة البلشفية عام ١٩١٧ .

وكانَتْ بُولندا تمتَّاز عن جاراتها بأنَّها تطلُ على بحر البلطيق في الشمال . وإنْ كانتْ ممحصورة بين روسيا في الشرق وبروسيا (المانيا) في الغرب مما جعلها في صراع دائم بين جارتيها اللتين كانتا تسعين إلى الاستيلاء على الأراضي البولندية في الشمال للوصول إلى مياه البلطيق . وجاء توحيد الأقوام البولندية عام ١٠٦٦ - بعد فترة قصيرة من ظهور الإمارات الروسية - عندما اعتنق البولنديون المسيحية الكاثوليكية ، وأصبحت البلاد على شكل إمارة سرعان ما تحولت إلى مملكة قوية . وتنتهي الأقوام البولندية إلى قبائل السلاف الغربيين ، وأصبح اليهود الذين هاجروا إلى بولندا - وكانوا أتوا من بلاد القوقاز بعد سقوط مملكة الخزر - يشكلون أكبر الأقليات ، ووصلت نسبتهم إلى ٩ في المائة من السكان .

وتعرَّضت وحدة الأراضي البولندية لخطر التفكك ، وفي عام ١١٣٨ انهارت السلطة الملكية المركزية وانقسمت البلاد إلى إمارات إقطاعية مما أدى إلى إضعافها ، وسرعان ما سقطت المناطق الغربية تحت سيطرة بروسيا - أصبحت الآن تعرف باسم المانيا - التي مدت سيطرتها على الجزء المطل على بحر البلطيق ، لكن الوحدة عادت إلى بولندا خلال القرن الرابع عشر ، تحت حكم الملك كاسimir فبدأت مرحلة من السلام والبناء نفذت فيها المشروعات العمرانية الكثيرة . وازدادت قوة بولندا عندما

تزوجت حفيدة الملك كاسيمير - وكانت أصبحت الورثة الوحيدة للعرش - من جاجيللو دوق ليتوانيا ، الذي جلس على عرش الدولة البولندية الليتوانية الموحدة وأصبحت الملكة البولندية الجديدة تمثل قوة حربية كبيرة ، وصارت تطمع في توسيع رقعتها ، وسرعان ما تم استرداد أراضي البلطيق من يد البروسين ، بل باتت تسيطر على أجزاء كبيرة من أراضي روسيا وأوكرانيا . وفي تلك الفترة شاهدت بولندا مظاهر الحركة الثقافية والفنية لعصر النهضة بعد فترة قصيرة من بروغها في إيطاليا ، واتجه المجتمع إلى محاولات الإصلاح .

وتحول نظام الحكم في بولندا إلى الملكية المنتخبة منذ نهاية القرن السادس عشر ، وأصبح اختيار الملك يتم بالانتخاب وليه بالوراثة ، وتلى هذا قيام الملوك بمحاولة ثانية للسيطرة على روسيا عندما قرر البولنديون فرض الكاثوليكية على روسيا ، واحتلوا موسكو عام 1610 وكانت أقوام القوزاق التي استقرت في وادي النير في صراع مستمر مع كل من بولندا والدولة العثمانية وقام القوزاق في عام 1648 بقيادة بودان خمبلينيتسكي بشورة عارمة ضد البولنديين وتمكنوا من طردتهم من أوكرانيا ثم تبعوهم إلى الأرض البولندية نفسها ، وسقط الآلاف من البولنديين واليهود قتلى في هذه الحرب ، وبعد أن انتصر القوزاق على البولنديين وضعوا بلادهم تحت سيطرة القيصر

الروسي فاستمرت الحرب بين روسيا وبولندا وكان النصر حليف الروس هذه المرة .

وبعد فشل بولندا في مغامراتها الجديدة دخلوها الحرب على جبهتين في الشرق مع روسيا وفي الشمال مع السويد ، وتمكن السويديون من احتلال العاصمة البولندية وارسو . وعندما انتهت هذه الحرب كانت بولندا خسرت ممتلكاتها في روسيا وأوكرانيا ، كما عادت منطقة البلطيق إلى حكم بروسيا . ثم مخالفت بولندا مع النمسا ضد العثمانيين الأتراك الذين أصبحوا يهددون بالاستيلاء على وسط أوروبا خلال القرن السابع عشر ، وكانت بولندا هي التي وقفت إلى جانب النمسا عندما حاصر الأتراك عاصمتها فيينا . ووقعت بولندا بعد ذلك فريسة لظهور قوتين جديدتين تتمثلان في كل من روسيا وبروسيا (المانيا) ، وكلاهما عملت على إضعاف بولندا وإخراجها من مجال السيطرة الأوروبية .

وانتهى الأمر في عام 1772 إلى تقسيم بولندا واستيلاء روسيا وبروسيا والنمسا على الأجزاء المجاورة لها من الأرضي البولندية . ومع تقسيم أراضي بولندا عند نهاية القرن الثامن عشر أصبحت غالبية يهود ليتوانيا وأوكرانيا تحت الحكم الروسي ، كما أصبح اليهود المقيمون في المناطق

الشمالية تحت الحكم الألماني والمقيمون في المناطق الجنوبية تحت الحكم النمساوي . وهكذا توزع يهود بولندا الإشكناز ليصبحوا مواطنين في أربع دول أوروبية . ومع قدوم القرن التاسع عشر ، عندما أصبحت هذه البلدان هي التي تقرر مصير السياسة الأوروبية ، وجد اليهود أنفسهم جزءاً من النظام الجديد في الوقت الذي انتهت فيه سلطة العثمانيين .

اليهود من تحريم صورة الإنسان إلى إباحة صور الآباء !

كانت الصورة التي تمثل الإنسان - أى إنسان - محمرة عند اليهود فى معظم مراحل تاريخهم الطويل إلى أن جاء عصر النهضة ، ليس فقط فى إنتاجها وإنما أيضا فى اقتئالها أو حتى مجرد مشاهدتها . واليوم أصبح اليهود ، ليس فقط المسيطرین على عاصمة فنون تمثيل الإنسان والذين قدموا تمثيلاً كل أنبياء التوراة والإنجيل على شاشة السينما ، بل صاروا - بحسب ما جاء في إحدى المجلات البريطانية - يعملون على احتكار هذه الوظيفة وإبعاد الآخرين عن الاشتراك معهم .

نشرت مجلة « سپكتاتور » البريطانية أخيراً مقالاً طويلاً تساءل فيه عما إذا كانت هناك مؤامرة تقوم بها عصابة يهودية سرية على منع غير اليهود من الوصول إلى مراكز السلطة في « هوليود » . والغريب أن رئيس تحرير المجلة الذى سمح بنشر هذا الموضوع - دومينيك لوسون ابن

نيجل لوسون وزير المال البريطاني السابق - هو نفسه يهودي . وذكر المقال أسماء ثلاثة من العمالقة الذين يسيطرون على صناعة السينما الأمريكية . مايك أوفير وستيفن سيلبريج وجيفري كاتزنبيرج وكلهم من اليهود . وبحسب ماجاء في المقال فإن يهود هوليوود - وهم جماعة من العدميين متواسطي الثقافة - أقاموا سباجاً لمنع تشغيل البعض الأنجلو - ساكسون من البروتستان ، والآخرين من غير اليهود في هذا المجال ، حتى أصبح اليهود وحدهم يحكمون صناعة السينما .

والفن بمعناه يحتوى على كل أعمال الإنتاج الإبداعى فى الأدب والشعر والدراما والموسيقى والرقص والفنون التشكيلية ، مثل أعمال الرسوم والنحت والمعمار . وأنتج الإنسان منذ أقدم عصوره أشكالاً فنية كان يعتقد أن أرواح الأجداد تسكن فيها . ويرجع أقدم الرسومات التى تم العثور عليها داخل الكهوف بمنطقة « لاسكو » الفرنسية إلى 15 ألف عام قبل الميلاد ، وهى تتضمن رسومات للثيران ، وعشر على تمثيل ترجع إلى الفترة الزمنية نفسها تمثل الأنثى رمز الشخصية ، وعلى أقنعة تستخدم فى الرقص الدرامى الذى كان يعتبر لدى الأقوام البدائية جزءاً من طقوس العبادة . وقام السومريون - الذين سكروا جنوب أرض ما بين النهرين - بتشيد معابدهم خارج المدينة ، منذ الألف الرابع قبل الميلاد .

كان الفن ملتصقاً بالاعتقادات الدينية منذ البداية عند غالبية الشعوب ، والسبب في هذا أنه يعبر عن المعانى الروحية التي قد لا تكون لها دلالات عقلانية مباشرة . ونشأ الفن التشبيهي في البداية في محاولة لتخليد الأجداد والأبطال القدماء - مع مرور الزمن - أصبحوا بمثابة المعبودات لأتباعهم ، ذلك أن الإنسان البدائى كان يؤمن بحلول روح الميت في الصورة أو التمثال متى تحقق الشبه .

وصلت الفتون إلى مرحلة النضج في مصر القديمة في عصر بناء الأهرامات - ٢٦ قرناً قبل العصر المسيحي - عندما وصلت فروع الفن التشكيلي الثلاثة ، الرسم والنحت والمعمار ، إلى نظام فني متكملاً . وكان الفن المصري مرتبطاً بالاعتقادات الدينية المصرية خصوصاً ما يتعلق منها بفكرة الحياة بعد الموت . ولهذا ارتبط العمل الفني في مصر ببناء المقبرة وإعدادها قبل بناء المعبد ، وكان المصريون يعتقدون بأن روح الميت تحمل في تمثاله بعد موته ، ولهذا كانوا ينحتونه من الحجر الصلب لي-dom في بقائه . ولم يهتم المصريون بتقديم صورة واقعية للإنسان ، وإنما أقاموا فنونهم على أساس من الأبعاد الحسابية والزوايا الهندسية التي كانت تشكل جوهر الاعتقاد الديني في مصر القديمة .

ونحن لا نعرف شيئاً عن النشاط الفني لبني إسرائيل أثناء وجودهم في مصر خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ولو حكمنا على ما ظهر بعد

هذه الفترة لوجدنا أن الإسرئيليين الأوائل تبعوا العادات نفسها التي كانت قائمة في المجتمعات التي عاشوا فيها ، ولم تكن لهم عادات أو مظاهر فنية مختلفة سواء في مصر أو في كنعان . ولم يكن بني إسرائيل في بادئ الأمر يمثلون سوى قبيلة متنقلة ، وجزء من واقع اجتماعي شامل ، كنعانى بشكل عام ، وإن كان بعض الذين سمح لهم الفرصة بالتعلم في مصر تأثروا بمظاهر الحضارة المصرية . ونحن نعلم من البقايا الأثرية التي تم العثور عليها في مصر ، أن الملك إخناتون - الذي كان يحكم مصر قبل فترة غير بعيدة من وقت خروج بني إسرائيل من مصر والذى أعلن وحدانية المعبود الذى ليس له شبه - لم يمنع صنع الصور التشبيهية ولا التماثيل ، بل إن الفن التشبيهي والرمزي حق قفزة كبيرة في عصره أنتجت ما عرف في ما بعد باسم « فن العمارة » وهو أرقى أشكال الفن المصري القديم ، والنموذج الذي احتذاه فناني عصر النهضة في أوروبا في ما بعد .

والسبب الذي جعل الكهنة يحرمون صنع صور الشبه هو تفسيرهم للنص الذي جاء في سفر الخروج - ثانى كتب التوراة - بالإصلاح العشرين « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض » (الإصلاح ٢٠ الآية ٤) .

كما ورد في سفر التثنية « لاتصنع للك تمثالاً منحوتاً وصورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن » (الإصحاح ٥ الآيات ٩و٨) وكذلك « لشلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم بهيمة ما مما على الأرض شبه طير ما ذي جناح مما يطير في السماء شبه ديب مما على الأرض شبه سمك مما في الماء تحت الأرض . ولشلا .. تسجد لها وتعبدها » (الإصحاح الرابع الآيات ١٦ - ١٩) .

رمع أن التوراة - كما هو واضح من النصوص السابقة - تحرم صناعة الأشباح بقصد عبادتها ، إلا أن الكهنة قالوا بتحريم صناعة صور الشبه بشكل عام . والسبب في هذا التحريم القاطع ، ليس فقط أن بني إسرائيل ظلوا ثمانية قرون من تاريخهم يعبدون الأصنام ، بعد ارتداهم عن الديانة الموسوية ، بل كذلك لأن الشعوب التي كانت تحيط بهم عندئذ كانت تقيم هذه الأشكال أساساً بقصد عبادتها . فلم يكن القدماء يقيمون رسمأً أو تمثالاً للبشر العاديين وإنما للملوك المقدسة والمعابدات ، فخشى الكهنة أن تؤدي هذه الفنون إلى ارتداد اليهود مرة ثانية . بل إن جوهر صراع اليهود ضد السلطة الرومانية كان يتمثل في رفضهم لصور الأشباح المصنوعة للأباطرة والمعابدات الرومانية . واستمر منع تشبيه الجسد الإنساني بأى شكل في أيام حكم كهنة معبد القدس ، وإن كان هذا المنع ازداد في ما

يتعلق بأشكال النحت المحسدة عنه في الأشكال المرسومة ، واستمرت الحال هكذا في ظل العصرتين الإغريقى والروماني ، وحتى في خلال فترة الحكم البيزنطى ، ثم الإسلامى . وعندما أظهر اليهود اهتماماً يقظاً الزخرفة ، استمروا في تخاشهما للأعمال التي تناولت شكل الإنسان أو الحيوان .

وكانت بداية ظهور فن مسيحي خاص له علامات مميزة في مصر ، في العصر اليوناني - الرومانى ، ومنها انتقل إلى روما ثم القدسية . بل إن أول شكل للصلب المسيحي كان « عنخ » مفتاح الحياة عند المصريين القدماء . وأحدث انتشار المسيحية تغييراً أساسياً في موضوعات الفنون التشكيلية ، فبعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية عام ٣١٢ وأصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية ، تغير شكل الفن وطراز المعمار في دولة الرومان . ولم تعد روما مركزاً للنشاط الفنى الذى انتقل إلى القدسية منذ منتصف القرن السادس ومع جلوس جستينيان على العرش (٥٢٧-٥٦٥) بدأت ملامح الفن البيزنطى الجديد تظهر في أعمال الفنانين ، مختلفة تماماً عن الفن الرومانى . وكما يبدو من الشكل الموزايىكي الذى ظهر فيه الإمبراطور وحاشيته ، فإن الفنان حرص على عدم تقديمهم على أنهم أجساد بشرية بل ككائنات روحية ، واختفت الأجساد تحت غطاء رمزي من القماش ،

تحيط بها أرضية ذهبية اللون . وكان من أهم مظاهر هذا الفن محاولة الفنانين إخفاء الطبيعة الجسدية للإنسان ، وقدموه وكأنه كائن روحي من الملائكة .

وحدث انقسام في موقف اليهود خلال القرون الوسطى ، فبينما استمر البعض في تحريم الأعمال الفنية التشبثية ، قبل البعض الآخر التعبيرات الفنية على أنواعها . ظهر فنانون من اليهود أنفسهم . ففي شمال أوروبا قام اليهود بأعمال فنية تشبهية ، وأباح افرايم بن إسحق حبر مدينة ريجنسبurg الألمانية رسم الحيوانات والطيور على جدران المنازل ، بل إن بعض الأخبار لم يمانع في رسم صور تمثل مشاهد من قصص التوراة على جدران المنازل ، مثل صورة الصراع بين داود وجالوت . وفي فرنسا أباح رجال الدين اليهود حتى تماثيل الشبه ، على ألا تكون كاملة .

وببدأ عصر النهضة في فلورانسا الإيطالية منذ القرن الرابع عشر ليفتح الطريق لظهور عمالقة في الفن التشكيلي حاولوا تصوير الإنسان وعالمه ، وأنزلوا شخصياتهم من وسط السحاب إلى واقع الحياة الأرضية . ولهذا اهتم المثالون والفنانون الإيطاليون بدراسة علم التشريح والأبعاد الحقيقية والظل والألوان . وكان يهود إيطاليا أول من تأثر بحركة النهضة وشاركوا في كل أنواع النشاطات الفنية ، حتى صار منهم أعضاء في طائفة

الرسامين . وفي القرن الثامن عشر بدأ الفنانون اليهود يرزون في العديد من المدن الأوروبية ، وظهر عدد من الفنانين النابغين من بينهم . وأصبح من الممكن بالنسبة إلى اليهود التعامل مع الفن التمثيلي بجميع صوره . حتى إن الفنانين اليهود أنفسهم بدعوا في إنتاج أعمال فنية تمثل الأحداث التي وردت في القصص التوراتية وتصور شخصياتها . وهكذا جاء التطور الطبيعي للنشاط الفني لدى اليهود متأخراً ولم ينطلق إلا في المرحلة الكلاسيكية المتأخرة للفن الأوروبي .

وعندما ظهرت فنون الشبه التشكيلية التي تعبر عن الإنسان وعالمه - وليس عن المعبودات وعوالمها - لم يجد أجيال اليهود مبرراً لحريم الأعمال التمثيلية . وكان الحظر الذي ورد في التوراة ينحصر في تحريم الأشكال التي تصنع بقصد السجود لها وعبادتها ، ولم يعد الناس يعبدون الأصنام في زماننا هذا . حتى صور الأنبياء والقديسين أصبح مسموماً يصنعها الآن ، في عصر سيطر فيه اليهود على أعمال الشبه في العالم الغربي بأكمله .

انهيار سيطرة أخبار التلمود أمام الدعاة الحسبيين المجددين

مررت يهودية الأخبار بأزمة كبيرة خلال القرن الثامن عشر كادت تقضي على وجود اليهودية كديانة مستقلة ، وتؤدي إلى اعتناق اليهود الجماعي للإسلام أو المسيحية ، فمنذ دمار القدس ومعبدها عام ٧٠ ميلادية كان الأخبار هم القيادة الرئيسية المنتشرة في أنحاء العالم ، يدرسوهم التلمود ، وهو كتاب يحتوى على أقوال موسى التي وصلتهم شفاهة . وكانت الاعتقادات اليهودية تقوم على الالتزام بحرفية النصوص وتحريم إعمال الفكر في تفسيرها ، فلما سقطت الدولة الإسلامية في الأندلس وطرد اليهود من إسبانيا والبرتغال في أواخر القرن الخامس عشر ، انتشر فكر القبالة التصوفى مع المهاجرين إلى المغرب وإيطاليا وبلاط الشام والأناضول ، فكان له كبير الأثر في تغيير الفكر اليهودي التلمودي في ما بعد . وعلى اعتقدات القبالة اعتمد شابتاى زيفى وأنصاره فى إعلان حركة الخلاص الشبانية التى بدأت خلال القرن السابع عشر فى الدولة

العثمانية . وعندما انتهى الأمر بمسح اليهود - الذى قبله معظم يهود العالم ونشر غالبية الأخبار بأنه مسيحهم الذى جاء لينصرهم على أعدائهم ويقيم مملكة إسرائيل من جديد ، هذه المرة لتحكم العالم بأجمعه - باعتناق الإسلام على يد السلطان العثماني محمد الرابع عام ١٦٦٦ ، كانت صدمة قاسية بالنسبة إلى الطوائف اليهودية كلها مما أدى إلى إضعاف مركز أخبار التلمود بشكل خاص . فهم الذين يتولون القيادة الدينية لليهود وهم الذين بشروا بقدوم « مسيحهم » وهم الذين باركوا شابتاي زيفى على أنه هو المخلص المنتظر الذى توقعوا مجبيه في العام نفسه ، ثم تحول إلى الإسلام . وتبع ذلك اعتناقآلاف اليهود للدين الإسلامي على أنه دين الخلاص .

وجاء اعتناق « مسيح اليهود » للإسلام بمثابة اعتراف ضمني بأن يسوع هو مسيح اليهود . فالدين الإسلامي يتضمن الاعتقادات التوحيدية الموسوية إلى جانب قبول عيسى (يسوع) على أنه مسيح بنى إسرائيل . وكان هناك الكثيرون من اليهود في القرن السابع الذين فكروا في اتباع رسول الإسلام لو لا أنه قبل أن يسوع هو المسيح . فكان اعتناق زيفى للإسلام اعترافاً منه بأن يسوع هو مسيح اليهود ، ولا داعي لانتظار مسيح آخر . وعلى هذا فبعد موت زيفى ظهر تلميذه يعقوب فرانك في بولندا - الذي أسس جماعة الفرنكبيين - ليقود انشقاقاً خطيراً داخل الجماعة

اليهودية ضد أخبار التلمود معلناً أن التلمود يمثل الكذب والخداع ، وأن يسوع هو المسيح ، ودعا أتباعه إلى قبول عمادة الكنيسة فاعتنق آلاف منهم الديانة المسيحية .

في هذه الظروف التي أفقدت يهودية أخبار التلمود ثقة الطوائف اليهودية ، قامت حركة الحسيديم في بولندا ، وانتزعت قيادة معظم الجماعات اليهودية من أيدي الأحبار وغيرت إلى حد كبير من طبيعة الاعتقادات اليهودية . فلم يعد الحسيديم ينتظرون مجئ المسيح تاريخياً . وإنما مجده في آخر الأيام (يوم القيمة) . ولم يعد اليهود هم الشعب المختار وإنما الخلاص يتم للأفراد الذين يستطيعون بسبب صلاحهم وتعبدهم إدراك النور السماوي .

و « الحسيديم » هو الاسم الذي يطلق على الحركة التي ظهرت في شرق أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وأصبحت بعد فترة وجيزة قوة رئيسية في اليهودية الحديثة ، واستمرت سيطرتها على الكيان اليهودي إلى أن ظهرت الحركة الصهيونية التي تمكنت في بداية القرن العشرين من فرض قيادتها على غالبية الجماعات اليهودية في العالم . وكان أول ظهور للحسيديم في منطقة الجنوب الشرقي لملكة بولندا - ليتوانيا قبل انفصالها في أواخر القرن الثامن عشر ، وكان مركز الشقل بالنسبة إلى الوجود اليهودي انتقل إلى بولندا .

ولم تبدأ هذه الحركة التي أسسها إسرائيل بن اليعازر مثل باقى الحركات والمذاهب اليهودية بين أفراد الطبقة العليا أو بين المثقفين ، بل كان معلموها الأوائل - الذين اعتادوا الترحال - ينشرون دعوتهم بين الجماعات اليهودية الصغيرة والفقيرة ، وكان الكثيرون من معلمى الحسيديم الأوائل من أتباع زيفى ، وجاء ظهور مذهب الحسيديم كرد فعل على خيبة الأمل التي سادت بين اليهود أثر اعتناق حركة زيفى للإسلام ، وحاول الكثيرون من رجال اللاهوت اليهود الذين استمروا في الاعتقاد بأن شابتاى هو مسيح اليهود ، حتى بعد إسلامه ، تفسير التناقض فى تخلى مسيح اليهود عن ديانته اليهودية ، فقال بعضهم بضرورة اعتناق جميع اليهود للإسلام ليقيموا تحالفاً بين اليهودية والإسلام مقابل العالم المسيحى ، بينما ذهب البعض الآخر إلى الاكتفاء بتعاليم زيفى في المرحلة التي عاشها قبل إسلامه .

ولا شك في أن هناك نوعاً من التقارب بين فكر الحسيديم والحركة الشباتية ، وهناك رواية أسطورية تقول إن إسرائيل بن اليعازر - معلم الحسيديم الأول - كان يحاول إنقاذ روح زيفى من الهلاك في جهنم ، حيث رأه مستلقيا على طاولة مع يسوع ، ولكن زيفى مدد يده وحاول جذبه ليسقط إليه في عالمه .

وينقسم تاريخ الحسيديم منذ نشأتهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر إلى أربع مراحل :

في المرحلة الأولى ظهرت جماعة من المعلمين الدعاة يتنتقلون بين الطوائف اليهودية - بزعامة بن اليعازر - يدعون إلى نوع جديد من العبادة ، وكان هؤلاء من جماعة القبالة المتصوفة ، وكان رئيسهم يستخدم طرق السحر والتعاويذ ، آمن هو وأتباعه بأن لديه قوى خارقة ومقدره على رؤية المجهول . وقامت دعوة بن اليعازر على ضرورة إطلاق سراح الفرد في تعبده من سلطة الأخبار وتفسيراتهم التلمودية ، حتى يتمكن من الاتصال بالرب مباشرة من دون وساطة رجل الدين . وفي المرحلة الثانية (١٧٦٠ - ١٧٧٢) بعد موت بن اليعازر ، انتقلت زعامة الحركة الحسيدية إلى تلميذه دوف يير الذي كان يعقد اجتماعات لأنصاره في منزله ويخطب فيهم واعظاً . وفي هذه الفترة تمكّن الحسيديم من تنظيم أنفسهم تحت قيادة قوية . وانتشرت حركة الحسيديم في كل مناطق بولندا وبلاروسيا ولithuania ، وعندما وقعت منطقة جاليسيا تحت سلطة النمسا ، انتشر الحسيديم في بلاد المجر كذلك .

وجاءت الفترة الحاسمة في تطور حركة الحسيديم بين نهاية القرن الثامن عشر ومتناتصف القرن التاسع عشر عندما أصبح الحسيديم قوة مهمة

داخل الكيان اليهودي وانتشرت جمعيات الحسيديم التي أصبحت تضم عشرات الآلاف من الأعضاء ، وحلت محل التنظيمات الدينية الرسمية لليهود وخرجت عن سلطة الأخبار ، على رغم ظهور معارضة منظمة تتهم الحسيديم بالهرطقة والخروج على أصول الديانة اليهودية .

أما في المرحلة الرابعة - وهي مستمرة حتى الآن - فقد ازداد انتشار الحركة وأصبحت قيادتها وراثية ، يرثها ابن أو ابن البت عن الأب وبلغت أوج اتساعها في منتصف القرن التاسع عشر ، وتحولت من جماعة منبوذة من قبل الأخبار الذين اعتبروها خارجة على الاعتقاد اليهودي الصحيح حتى أصبحت مسيطرة على غالبية الجماعات اليهودية في روسيا وشرق أوروبا وعندما بدأت موجة الهجرة إلى الغرب منذ ١٨٨١ انتشر الحسيديم في الدول الغربية خصوصاً في الولايات المتحدة الأميركية ، وفي هذه المرحلة حصل الحسيديم على اعتراف بحركتهم ، سواء من جانب باقي الطوائف اليهودية أو من السلطات الرسمية في البلدان التي انتشروا فيها ، وصار من حقهم تعيين حاخامات خاصين بطوائفهم .

وتوضح اعتقادات الحسيديم خصوصاً في طريقة سلوكهم وعبادتهم ، إذ يقوم المعلمون الدعاة بالخطابة والوعظ في مجالسهم ، ولهم طقوس خاصة تشبه طقوس « الحضرة » عند الصوفيين . وهم مثل الصوفية

ينقسمون إلى فرق لكل منها معلم له تعاليمه الخاصة به ، وإن اتفقت في الإطار العام للجماعة . واعتمد معلمو الحسيديم على المبادئ العامة لفلسفة القبالة - كما فعلت حركة شابتاى زيفى من قبل - بعد أن أعطواها شكلاً شعبياً عن طريق روايات التجلی الروحی ، وهم يقولون بانسحاب النور المقدس بعيداً عن العالم لإفساح المجال الفضائی الذي خلق فيه العالم ، ويؤكد الحسيديم على أن الرب موجود في كل مكان وزمان ، مما جعل الأخبار يتهمونهم بالزنقة حيث إن الفكر التلمودي يقول بانفصال الرب عن العالم .

وبحسب اعتقاد الحسيديم فإن العالم لا يستطيع أن يستوعب القوة الكاملة للنور المقدس . وقالوا إن خلاص اليهود لا يمثل ظاهرة جماعية تتحقق للطائفة بأكملها وإنما يتحقق خلاص الأفراد عندما يسمو الفرد بروحه فيصير على مقدرة من الاتصال بالقوى الملائكية . وتجد أن الحسيديم - بخلاف الأخبار - يؤكدون على أهمية اتصال الفرد بربه مباشرة عن طريق العبادة ، بدلاً من الاعتقاد بأنها عملية جماعية تتعلق باليهود بشكل عام ، أو بانتظار تدخل الرب لحماية « الشعب المختار » . فالخلاص عندهم هو خلاص للفرد نفسه وليس لكل الشعب اليهودي ، وهو يتوقف على ما يقوم به هذا الفرد - حتى في سلوكه أثناء العمل وسلوكه الاجتماعي - وليس له علاقة لا بالشعب اليهودي ولا بالتغييرات

القدرة . وبينما يؤكد الحسيديم على ضرورة اتصال الإنسان بربه مباشرة عن طريق العبادة ، فهم تخلوا عن طريقة العبادة اليهودية الربانية التي تقوم على قراءة التلمود وفهم معانيه ، مما جعلهم يصبحون أكثر انتشاراً بين الفئات الشعبية . ويضرب الحسيديم مثلاً بقصة أسطورية عن ملك جبار يجلس على عرشه في وسط القصر ، تحيط به قاعات مليئة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وعندما يدخل رعايا هذا الملك إلى القصر فإن غالبيتهم تظل مشغولة داخل هذه القاعات المليئة بالكنوز تحاول جمع أكثر ما تستطيع من كنوزها ، ولكن الحكماء من الرعايا هم الذين بإمكانهم مقاومة إغراء كنوز القاعات فيصلون إلى مجلس الملك ويشاهدون نوره فوق عرشه .

وبالطبع فإن جذور هذه الاعتقادات التصوفية جاءت من فلسفة القبالة التي ظهرت خلال القرن الثالث عشر بين يهود الأندلس بتأثير المدرسة الصوفية وتعنى كلمة « قبالة » - التي صارت تعطلق على الحركة الصوفية في اليهودية - الاستقبال في اللغة العبرية . وتمثل محاولة صوفية للتعرف على رب ، تعتمد على تفسير العلاقات الروحانية عن طريق الرموز ودلالة الأسماء الحسنى . ومن الواضح أن فكر القبالة يعتمد على الفكر الأفلاطونى الحديث الذى انتشر فى الإسكندرية خلال القرون الأولى للمسيحية - وكان أتباعه يعرفون باسم « العارفين » (Gnostics)

في المصادر القديمة - وكان فيليو جودايوس وأفلوطين من أهم المعتبرين عنه . وعلى رغم تحريم أحبار التلمود إعمال الفكر والتجوء إلى المنطق والفلسفة لتفسير التوراة ، إلا أن فكر العارفين عاد إلى الظهور في ظل مجتمع الأندلس المفتح للثقافة ، وكان له أثر كبير في ظهور المذاهب اليهودية الجديدة من ذلك التاريخ . ومن أهم الأعمال التي ورد فيها تفسير لفكرة القبالة ما قام به يعقوب بن هاكوهين وأخوه إسحق في الأندلس ، المعروف باسم « زوها » ويقوم فكر القبالة على محاولة التعرف على الطبيعة الإلهية عن طريق العبادة والتأمل . واتهم خصوم الحسيديم الحركة بالتخلي عن الاعتقادات اليهودية التقليدية والتأثير بطرق السلوك في العالم الغربي والاقتراب من الاعتقادات الروحانية . فالفارق الأساسي بين اليهود الأرثوذكس - الذين يقولون بالرأي المستقيم - وبين الفكر المسيحي ، هو رفضهم قبل وجود كائنات ملائكية في العالم الرباني . حتى الشيطان - الذي يمثل ملاك الشر في الاعتقادات المسيحية والإسلامية - لا وجود له في الاعتقادات اليهودية الأرثوذكسيّة ، ذلك أنهم يعتقدون بأن وجود عالم الملائكة لا يتناسب مع وحدانية الله . وكان هذا هو السبب الجوهرى لرفض الكهنة اليهود لرسالة يسوع المسيح ، الذي - لم يأت بفكرة ملائكة الله فحسب - بل قال بوجود الروح الإلهى في كل إنسان ،

حيث نفع الرب من روحه في آدم أول خلقه من البشر .

وكان لانهيار سلطة الكهنة والتلمود أثر خطير في الاعتقادات اليهودية ، ولا شك في أن فكر الحسيديم جعلهم أقرب إلى الاعتقادات المسيحية منهم إلى أخبار التلمود . وظهر على الأفق في منتصف القرن التاسع عشر أن الديانة اليهودية توشك أن تذوب وتتلاشى داخل الكيانات المسيحية والإسلامية السائدة في العالم ، فإذا لم يكن اليهود شعباً مختاراً ، مما الداعي للعزلة عن باقي البشر ؟ وكان هذا هو الوقت الذي ظهرت فيه الحركة الصهيونية لإنقاذ الموقف عندما أصبحت فكرة الشعب المختار وحدها هي جوهر اعتقاد الحركة الجديدة .

مبادئ الثورة الفرنسية تهدد

بإذابة اليهود في المجتمع

لا شك في أن الحضارة الغربية الحديثة التي تقوم على أساس من الحرية الاجتماعية وحق الأفراد في الاختيار ، جاءت نتيجة لانتشار مبادئ الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر . فهى التي حررت الإنسان الفرد من تحكم الجماعة . وقبل الثورة الفرنسية كانت المجتمعات تتشكل من طبقات وطوائف مغلقة ، لا يسمح لأحد بالخروج منها ، وحتى الوظائف كانت شبه وراثية . كما كانت الكنيسة تحكم في سلوك جميع الطوائف . وشهدت فرنسا تغييرات أساسية في شكل المجتمع ونظامه السياسي منذ قيام الثورة في ١٧٨٩ وحتى سقوط نابليون وإمبراطوريته في ١٨١٥ .

وعلى رغم وجود عدد قليل من اليهود في فرنسا عندما قامت الثورة إلا أن مبادئ الثورة الفرنسية التي انتشرت إلى باقى الدول الأوروبية أولاً

مع الجيوش الفرنسية المحيطة بفرنسا ، وبعد ذلك عن طريق انتشار الثقافة والفكر الفرنسيين بلغت معظم البلدان الأوروبية والولايات الأميركية ، وهددت بالقضاء التام على عزلة اليهود ، وتحويل اليهودية إلى مجرد ديانة . ونحن نعرف أنه منذ بداية انتشار اليهود في دول الإمبراطورية الرومانية ، كانوا يتجمعون داخل طائفة مغلقة ولا يختلطون مع باقي أفراد المجتمع إلا أثناء العمل ، فلا تزاوج بين اليهود وغيرهم من الأفراد ، ولا معاشرة اجتماعية ولا طعام مشترك .

ويكون ولأولهم الأول - بحسب إيمانهم الخاص - ليس للسلطة السياسية التي يخضعون لها وإنما سلطة كهنة المعبد في أورشليم وكانتوا يجمعون الأموال سنوياً لإرسالها إلى الكهنة . وبعد انهيار المعبد عام ٧٠ ميلادية واحتفاء طبقة الكهنة بأجمعها إذ قتلهم الرومان ، ظهر فقهاء الأخبار كقيادة دينية جديدة لليهود . واستمر الأخبار - الذين اعتمدوا في عبادتهم على التفسيرات التلمودية - في الاعتقاد بضرورة عزلة اليهود في طائفتهم وعدم اختلاطهم مع الآخرين . وسرعان ما حصل الأخبار على موافقة الحكومات المختلفة يجعل الفصل في المسائل الخاصة بالطوائف اليهودية في يد الأخبار أنفسهم فهم المسؤولون أمام الدولة عن سلوك أفراد طائفتهم ، وهم الذين يقومون بجمع الضرائب المقررة على الطائفة وتسليمها إلى خزانة الحكومة ، وهم الذين يجلسون للقضاء في

الخلافات الناشئة بين أفراد طائفتهم ، وهم الذين يقررون توقع العقاب على أي فرد من أفراد الطائفة إذا خرج عن الالتزام بتعاليمهم .

والسبب الذي جعل الأحبار يفرضون هذه العزلة الاجتماعية على أفراد طائفتهم هو أن جوهر الديانة اليهودية الربانية التي كانوا يدعون إليها يقتضي هذه العزلة . فاليهود هم الشعب المختار الذين يتظرون مخلصهم ليقوم بإعادة بناء معبد أورشليم ، وهو الذي سيجمعهم في أمة واحدة تحت قيادته ، ويحكم العالم .

وحتى عندما أصبحت غالبية العظمى من يهود العالم من الإشكناز الذين لا ينتمون إلى سلالة بني إسرائيل ، أصر الأحبار على فكرة الشعب المختار هذه وكان ظهور شاباتاي زيفي في عاصمة الدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر - الذي بشر غالبية الأحبار بقدومه عام ١٦٦٦ على أنه مسيح اليهود المنتظر - وبدلًا من أن يسافر إلى القدس لبناء المعبد وتحميم طوائف اليهود لحكم العالم .. اعتنق - هو نفسه - الإسلام ودعا طوائف اليهود إلى سلوك الطريق نفسها . ثم جاءت حركة الحسيديم لتنكر طبيعة الخلاص الجماعي ، وتقول بضرورة تحرر أفراد اليهود في عبادتهم من قيود الأحبار والتلمود ، حيث في إمكان أي فرد التبعد إلى رب مباشرة . ومع هذا - وعلى رغم استعداد الحسيديم للتقارب مع

المجتمعات التي يعيشون بها - إلا أنهم استمروا في الحياة داخل طائفة مغلقة . أما الثورة الفرنسية فقد حررت الأفراد من سلطة الطوائف ، وأصبح جميع المواطنين - بمن فيهم اليهود - يخضعون لقانون واحد ومحكمة واحدة ، وأصبح من حق المواطنين الانتقال إلى أي مكان للمعيشة والقيام بأى عمل يرغبون فيه . وبينما رحب الأفراد اليهود بهذه التغيرات في حياتهم ، اعتبرها الأighbors رؤساء الطوائف خطيرة على الكيان اليهودي . ذلك أن النظام الجديد تضيى على سلطتهم الخاصة في التحكم في سلوك أفراد اليهود . وبالطبع فإن العبادة اليهودية لم تتأثر بالنظام الجديد ، ولكن فكرة العزلة عن المجتمع انهارت تماماً بسببه .

كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير في الفكر الأوروبي المعاصر ، وكانت فرنسا مركز الفكر التنويري الذي اعتمد على نتائج التجارب العلمية في إنجلترا والمانيا ، وكان يهدف إلى تحرير الفرد من سلطة الأوهام والكنيسة والحكومة والطوائف . وأدى انتشار التعليم - على أثر ظهور المطبع منذ القرن الخامس عشر - وازدهار الثقافة بتأثير مدارس عصر النهضة في إيطاليا في الوقت ذاته إلى تطور في حقل المعرفة العلمية أدى بدوره إلى ظهور الفلسفة الأوروبية الحديثة ، ونادت الحركة الجديدة برفض الاعتماد على الأساطير والروايات الخرافية والاعتماد على الحواس والتجربة لبناء المعرفة التي يقبلها العقل . وانتشرت اللغة والثقافة الفرنسية

خلال القرن الثامن عشر - وحتى الموضة الفرنسية - بين الطبقات الغنية والمتعلمة في كل أنحاء أوروبا . كما انتشرت حركة التوир من فرنسا إلى باقي الدول الأوروبية خصوصاًmania وإنجلترا والولايات الأميركية .

كانت الطائفة اليهودية في فرنسا تتكون من جماعتين منفصلتين : السفارديم الذين هاجروا إلى البلاد بعد طرد़هم من إسبانيا خلال القرن الخامس عشر - وبلغ عددهم حوالي ٣٥٠٠ - وسكنوا المناطق القرية من الحدود الإسبانية في مقاطعة بوردو بجنوب غرب فرنسا . أما الجماعة الثانية فهي من الإشكناز الذين قدموا من شرق أوروبا وبلغ عددهم حوالي ثلاثة ألف ، وسكنوا المناطق الفرنسية الشرقية . وعمل السفارديم في التجارة الخارجية وتمكنوا من تكوين طائفة حرفة تجارية ، فجمعوا المال في فرنسا إلى جانب الثقافة التي أتوا بها من الأندلس ، مما جعلهم مقبولين بشكل عام كجزء من المجتمع البرجوازي الفرنسي . أما الإشكناز في الشرق فكان معظمهم دخل الأراضي الفرنسية متسللاً من دون تصريح ، وهم يتكلمون لغة اليديش - التي هي خليط من العبرية واللغات الجermanية - ولا يتبعون السلوك الفرنسي ، يعيشون في جماعة مغلقة تخضع لتعليمات صارمة من الأخبار الذين كانت لهم سلطة توقيع العقوبة على أي مخالفة لتعاليمهم . وكان معظم الإشكناز يتعامل في تجارة الماشي وأعمال الريا ، مما جعلهم مكرهين

من قراء الفلاحين الفرنسيين في المنطقة .

وأصبحت المشكلة اليهودية موضوع اهتمام رجال الفكر في فرنسا منذ ١٧٧٠ ، عندما بدأ المفكرون الإصلاحيون في مهاجمة الاعتقادات الكنسية ، خصوصاً التعصب الديني ، ونادوا بضرورة تسامح المجتمع وقبول المخالفين في الفكر والاعتقاد ، فأصبح اليهود متهمين بأن كتبهم وسلوكيهم تقوم على أساس من التعصب الديني إلا أنهم صاروا في الوقت نفسه محل عطف عليهم بسبب اضطهاد محاكم التفتيش الكنسية لهم . وبينما ذهب ثولتير - وهو من أعلام حركة التنوير في فرنسا - إلى أن لليهود طبيعة متعصبة خاصة بهم متأصلة في شخصيتهم ولا يمكن تغييرها ، قال آخرون إن سبب الواقع في سلوك اليهود يرجع إلى طريقة المعاملة السيئة التي يلاقونها في المجتمع الذي تركهم في عزلة اجتماعية تحت رحمة رؤسائهم الذين يفرضون عليهم اتباع تقاليدهم العتيدة ، أما إذا حصلوا على حقوق المساواة الاجتماعية وقبلهم المجتمع كمواطنين ، فإن سلوكهم سوف يتحسن تلقائياً .

وكان لويس السادس عشر نفسه راغباً في تحقيق الإصلاحات الضرورية التي يتطلبتها العصر ، ولكنه كان يفتقر إلى الذكاء والقدرة على حسم الأمور بحزم ، في وقت كانت فيه فرنسا تمر بمرحلة صعبة من

تاریخها . و بينما كان لويس يسعى إلى توسيع سلطاته حتى يتمكن من تحقيق المشروع الإصلاحى الذى عزم عليه ، كان النبلاء و حكام المقاطعات يعملون على تحديد سلطات الملك و زيادة امتيازاتهم الخاصة . وجاء اشتراك فرنسا إلى جانب الثوار الأميركيين ضد الاحتلال البريطانى ليستنزف الموارنة الفرنسية و يؤدي إلى إضعاف قدرة لويس على الإصلاح . كما صاحب الاستنزاف العربى للموارد المالية زيادة كبيرة فى عدد السكان - بلغت نسبتها ۲۵ فى المائة فى عهد لويس السادس عشر - لم تصاحبها زيادة فى مساحة الأرض المزروعة أو فى الإنتاج الصناعى ، مما أدى إلى انتشار الفقر المدقع بين ملايين الفلاحين الفرنسيين وفى الوقت الذى ازداد الفقراء فقراً ، ازدادت ثروات النبلاء والكنيسة ، وهى الطوائف التى رفضت دفع الضرائب أو مساعدة الحكومة فى حل المشكلة . واضطررت الحكومة إلى الاقتراض لتعويض العجز القائم فى موازنتها ، مما زاد الطين بلة ، فزادت الحكومة من حصيلة الضرائب التى تحصل عليها من عامة الشعب حتى تتمكن من سداد القروض وفوائدها ، وأصبحت فرنسا فى تلك الفترة البلد الوحيد الذى يقوم فيه الفقراء بدفع معظم الضرائب ليتم إنفاقها على الدولة والكنيسة .

وفى محاولة لإيجاد حل للمشكلة الاقتصادية ، دعا لويس جمعية النبلاء - التى يشاركهم فيها الكهنة - إلى الاجتماع لبحث إمكان زيادة

الضرائب المفروضة على الطبقات الميسورة للمساعدة في الخروج من الأزمة . ولكن جمعية النبلاء رفضت مساعدة لويس في حل المشكلة ، خصوصاً وهو يطالبهم بتحمل التكاليف . ولذلِك رفض مجلس النبلاء مناقشة المشكلة الاقتصادية لم يجد لويس بدأً من الدعوة عام ١٧٨٩ إلى اختيار أعضاء لتشكيل مجلس المقاطعات ، وتم اجتماعه في فرساي في الخامس من أيار (مايو) من العام نفسه . وكان هذا المجلس يتكون من ثلاث جمعيات تمثل الكهنة والنبلاء وال العامة . وبدلًا من مناقشة المشكلة الاقتصادية فوجئت الحكومة بأن جمعية العامة - بتأييد من بعض الكهنة والنبلاء - قامت بإعلان نفسها جمعية وطنية وأعطت لنفسها سلطة وضع المبادئ التشريعية التي تسير عليها البلاد وكتابه الدستور . وعندما قامت السلطات بإغلاق غرفة الاجتماعات ، استمرت الجمعية الوطنية مجتمعَة في ملعب التنس المجاور للقاعة ورفضت الإذعان لمناشدة لويس بالاقتصار في أعمالها على مناقشة المشكلة الاقتصادية . وكانت باريس تعج بالعاطلين عن العمل والجائعين الذين عجزوا عن العثور حتى على رغيف الخبز ليشعوا به جوعهم .

وفي يوم ١٤ تموز (يوليو) قات جماعات من العامة بمهاجمة سجن الباستيل وأطلقت سراح المجنونين ، وعمت الفوضى جميع أنحاء فرنسا ولم يتمكن أحد من السيطرة على الموقف . وتشجعت الجمعية

الوطنية على أثر هذه الأحداث في إصدار أهم بيان لها المعروف باسم «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» يقوم على إطلاق سراح الفرد في تصرفاته الشخصية من سلطة الدولة والكنيسة واعتبار جميع المواطنين سواسية ، بصرف النظر عن انتتمائهم العائلي أو اعتقادهم الديني أو وضعهم المالي . كما قررت الجمعية إلغاء النظام الإقطاعي والاستيلاء على أملاك الكنيسة وقطع علاقتها بروما كما منعتها حق جمع ضريبة العشر من المواطنين ، وأصبحت خاضعة للسلطة المدنية في تصرفاتها . وقررت الجمعية كذلك المساواة بين المواطنين في دفع الضرائب للحكومة .

ولم يحصل اليهود على حقوق المساواة مباشرة ، فقد تم تفسير إعلان حقوق الإنسان في البداية على أنه لا ينطبق على اليهود . وفي أوائل العام التالي وافقت الجمعية على منح اليهود السفارديم حق المساواة مع باقي الفرنسيين ، واستمر النظر إلى الإشكناز على أنهم غرباء عن المجتمع الفرنسي . ولكن الجمعية الوطنية عادت في أواخر أيامها عام ١٧٩١ وقررت منح الإشكناز حق المواطنة ، حتى تكون الشورة حررت جميع سكان الأرضي الفرنسية بصرف النظر عن أصلهم العرقي أو اعتقادهم الديني ، وسرعان ما بدأت الحرب عام ١٧٩٢ بين فرنسا ومعظم الدول الأوروبية ولم تنته إلا بنهاية نابليون في ١٨١٥ .

ومع انتشار مبادئ الثورة الفرنسية انهارت الطوائف اليهودية وأصبح اليهود مواطنين في المجتمعات الجديدة ، وخشى زعماء الطوائف من أن يؤدي هذا إلى ذوبان الإنسان اليهودي داخل مجتمعه الجديد بعد أن أصبح مواطناً فيه ، له الحقوق نفسها وعليه الواجبات نفسها مثل باقي المواطنين ، وهنا بدأت في روسيا القيصرية - وهي آخر المعاقل التي قاومت فكر الثورة الفرنسية - حركة يهودية جديدة باسم « حبات صهيون » تقاوم ذوبان اليهود وسط الأمم وترفع شعار العزلة من جديد ، هذه المرة على أساس سياسي .

الخلفيات الدينية والسياسية

لاتهامات التضحية بالأطفال

من الأسباب التي أدت إلى كراهية اليهود في المجتمعات الغربية منذ القرون الوسطى وحتى القرن العشرين ما أشيع من قيامهم بخطف الأطفال المسيحيين الصغار وذبحهم في ليلة عيد الفصح لاستخدام دمهم في طقوس العبادة التي يقومون بها في هذا اليوم . ويصر اليهود على إنكار هذا الاتهام الذي يفسرونها على أنه إشاعات كاذبة تعتبر شكلاً من أشكال العداء للسامية وتهدف إلى إيجاد الأعذار للتنكيل بهم . وليس هناك في التوراة ما يقول بوجوب تقديم أضحية بشرية في عيد الفصح ، وإن كان استخدام الدم في عملية التطهير المقدس ورد في مواضع عدة من العهد القديم ، ولكن دم الحيوان هو المقصود عليه هنا .

كما تنص تعاليم التوراة على ضرورة تكفير الإنسان عما يرتكبه من خطايا عن طريق أضحية يتم ذبحها ، وتكون قيمة عملية رش الدم هي

في تحقيق الغفران . كما أحلت التوراة - بحسب ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام وابنه الذبيح - التضحية بالحيوان فداء للإنسان ، وكانت أضحية الدم عن طريق الذبح تعتبر محققة للطهارة . لكن شرب الدم أو تناوله مع اللحم كان محظياً .

كانت الأضحيات البشرية موجودة في معظم الديانات الوثنية القديمة ، وكان الاعتقاد السائد هو أن روح الكائن الحي تكون موجودة في دمه . فلم يكن الإنسان البدائي يعرف شيئاً عن الدورة الدموية .

إلا أن الادعاء بقيام اليهود بتقديم أضحية بشريّة في عيد الفصح يسبق القرون الوسطى بل والعصر المسيحي نفسه . وحسب كلام الكاتب السكندرى أبيسون الذى عاش في بداية القرن الميلادى الأول ، فإن أنتيوخوس ايفانز الملك السلوقى الذى كان يحكم أرض الشام خلال النصف الثاني من القرن الثانى السابق للميلاد ، عشر داخل معبد اليهود في القدس على شخص يونانى كان الكهنة يحبسونه في إحدى الغرف الداخلية ووجد أمامه طعاماً كثيراً على المائدة ، ولما سأله عن قصته أخبره أن الكهنة سجنوه وهم يطعمونه حتى يسمن لكي يذبحوه عند الاحتفال بعيد الفصح . وكان أنتيوخوس هاجم كهنة القدس ووضع حامية يونانية في قلعتها وعزل الكاهن الأكبر وعين كاهناً آخر مكانه . ويقول فلافيوس يوسيفوس - المؤرخ اليهودي الذى عاش خلال القرن الأول للميلاد -

إن رواية أليون السكندرى ماهى إلا إشاعة مغرضة لتبسيير تدنيس الملك السلوقي لمعبد اليهود ، وليس لها أساس من الصحة .

ومع دمار معبد القدس اختفت الاتهامات الموجهة إلى اليهود ولم نسمع بعد ذلك عن تكرارها هذا خلال الأحد عشر قرناً الأولى لل المسيحية . وفي القرون الوسطى عادت الروايات والقصص تظهر من جديد - هذه المرة في أوروبا الغربية - حول فكرة الأضحية البشرية لدى اليهود وطقوس الدم الإنساني في عيد الفصح . وانتشرت خلال القرون الوسطى حالات اتهام المسيحيين لليهود بارتكاب أضحیات الدم البشرية ، وجاء أول هذه الاتهامات عام 1144 في مدينة نوريتش الإنجليزية عندما قيل إن اليهود اختطفوا طفلاً مسيحياً وقتلوا بعد تعذيبه . ثم تبع هذا في القرن التالي اتهام اليهود بقتل طفل مسيحي آخر في مدينة لينكولن في إنجلترا أيضاً ، وأشار الأديب الإنجليزي جوفري شوسر إلى هذه الحادثة ضمن « حكايات كانتربرى » حيث ذكر قصة صبي مسيحي يتيم الأب كان يسير في منطقة سكن اليهود وهو يرتل أغنية كنسية ، فأنزل به اليهود وقتلوا .

وبعد هذا عمّت الاتهامات الموجهة لليهود في معظم البلدان الأوروبية ، وقيل في ميونيخ إن اليهود شربوا دم الأطفال المسيحيين بعد ذبحهم .

وكانت غالبية الحكام الأوروبيين ورجال الكنيسة تعارض انتشار هذه الشائعات . ورغبة منه في وضع حد لهذه الأقاويل قام الإمبراطور فريديريك الثاني عام ١٢٣٥ بعمل تحقيق لمعرفة حقيقة هذه الاتهامات ، وبعد أن سُأله رجال الكنائس المسيحية عمد إلى سؤال بعض اليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن حقيقة هذه الشائعة إذ إنهم أقدر الناس على معرفة هذا الأمر . وجاء في البيان الذي أذاعه الإمبراطور عند انتهاء التحقيق أنه عند سؤال رجال الكنيسة « عبروا عن آراء مختلفة عن هذه الحالة ، وأنه تبين عدم قدرتهم على إعطاء قرار نهائي في هذا الشأن ... وجدنا من الضروري ... اللجوء إلى بعض الناس الذين كانوا يهوداً من قبل ثم اعتنقوا الدين المسيحي ، فهم بصفتهم معارضين ، لن يسكنوا عن أي شئ يعرفونه في هذا الأمر ضد اليهود » . وجاءت نتيجة هذه التحقيقات لتنفي عن اليهود تهمة قتل الأطفال المسيحيين ، وأيد إنسينت الرابع بابا روما هذه النتيجة . ومع هذا ظلت الجماهير على اعتقادها بارتكاب اليهود لهذه الجرائم . وكان رد اليهود أنها تهمة كاذبة إذ لا يوجد في التوراة ما يتطلب ذبح البشر ، واتهموا بدورهم المجتمعات المسيحية بإطلاق هذه التهمة الكاذبة ضدهم حتى يجدوا مبرراً لقتل اليهود .

واستمرت الاتهامات توجه لليهود بتعذيب الأطفال المسيحيين وقتلهم في ذكرى موت المسيح في عيد الفصح خلال القرنين الثاني عشر والثالث

عشر ، في جلوستر بالإنجليزية ولواز بفرنسا وساراغوزا بإسبانيا . وفي عشية طرد اليهود من إسبانيا أثير الاتهام المعروف باسم « طفل لاغرادي المقدس » في عام ١٤٩٠ ، حيث اعترف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية بأن اليهود قاموا - بمعرفة الحبر الأكبر - بالاجتماع في كهف وقتل الطفل المسيحي ثم انتهك حرمة الموتى بطعنه في وجهه .

ثم ظهرت المخاوف نفسها في أوروبا الشرقية حيث انتشرت اتهامات الأضحية البشرية ضد يهود بولندا وليتوانيا بكثرة منذ القرن السابع عشر ، وفي هذه المرة صاحبتها اتهامات بممارسة الأعمال السحرية كذلك . وأصبحت هذه التهمة أوسع انتشاراً في روسيا القيصرية ، حيث جاءت التهمة الأولى بمدينة سيني في شمال البلاد عام ١٧٩٩ عندما تم العثور على جثة امرأة مقتولة بالقرب من حانة لليهود . وبصفة عامة نجد أن هذه التهمة توجه بشكل خاص في المناطق التي يسكنها اليهود الإسكندر . ومع أن الحكومة الروسية أصدرت تعليماتها عام ١٨١٧ بمنع توجيه تهمة قتل الأطفال المسيحيين إلى اليهود من دون دليل ، إلا أن القياصر الإسكندر الأول عاد - بعد سنوات قليلة من صدور هذه التعليمات - وأصدر أوامره بالتحقيق في اتهام اليهود في جريمة قتل مسيحي بمدينة فيلبيتس بشمال روسيا عندما عجزت السلطات عن معرفة القاتل . ثم قام خليفته نيقولا الأول بإلغاء هذه التعليمات معلناً أن « هناك بين

اليهود من هم متغصبون همجيون ، وفرق تتطلب دماء المسيحيين للقيام بطقوسها ١ .

واستمرت هذه التهم توجه إلى اليهود في روسيا القيصرية حتى قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، فرفض الشيوعيون قبول هذا النوع من الاتهامات التي اعتبروها سلاحاً رجعياً استخدمه النظام القيصري لاستغلال الجماهير وإرهابها . ومع ذلك ظلت الاتهامات بقتل الأطفال تظاهر خلال القرن العشرين وتوجه ضد يهود الاتحاد السوفيتي في مقاطعات جورجيا وطاجكستان وأوزبكستان .

وبالطبع كانت المجتمعات المسيحية تعاقب الطوائف اليهودية بالقتل والطرد في كل مرة توجه إليهم تهمة الأضحية البشرية . وكان لهذه الاتهامات أثر سين في حياة اليهود في أوروبا بشكل عام . إذ تعرضوا للتعذيب والإهانة وأصبح البعض يعاملهم وكأنهم يمثلون الشيطان .

أما بالنسبة إلى المنطقة العربية فقد صدر أول اتهام لليهود بالأضحية البشرية في دمشق عام ١٨٤٠ . نقى الخامس من شباط (فبراير) ١٨٤٠ اختفى راهب كبوشى إيطالى كان يقيم فى المدينة السورية ومعه خادمه إبراهيم عمارة ، وأعلن الرهبان الكبوشيون أن اليهود قتلواهما لاستعمال دمائهما فى طقوس عيد الفصح . ولأن الكاثوليك المقيمين فى سوريا

كأنوا يقعون تحت الحماية الفرنسية ، تمت التحريات حول الحادث باشتراك القنصل الفرنسي المقيم في دمشق مع المحاكم العام السوري - وتم القبض على حلاق يهودي وتعذيبه فاعترف بأن الراهب وخادمه لقيا مصرعهما على يد سبعة من اليهود في منزل شخص يدعى دافيد هاري ، وأيد خادم هاري المسلم هذا الادعاء وإن كان قال بحدوده في منزل يهودي آخر غير سيده ، فتم القبض على المشتبه فيهم . ولما كان بعض المقبوض عليهم يخضع لحماية بعض الدول الغربية فقد تدخلت النمسا وإنجلترا والولايات المتحدة في الموضوع . وكانت سوريا تقع تحت حكم محمد على باشا في ذلك الوقت ، وعندما تم العثور على بعض العظام في مسجاري منازل اليهود ازدادت الشكوك حول صحة الادعاءات الموجهة ضدهم وأعلنت سلطات التحقيق ثبوت التهمة في حق المتهمين .

وثارت الطوائف اليهودية الأوروبية على هذا الإجراء وأرسلت وفداً يمثلها إلى مصر ، استطاع اللقاء بمحمد على باشا وقدم إليه طلباً بإعادة محاكمة يهود دمشق إما في الإسكندرية أو أمام قضاة من الغرب . ورفض محمد على إعادة المحاكمة ولكنه أصدر قراراً بالإفراج عن اليهود المسجونين في سوريا . ومع هذا تكرر اتهام اليهود مرة أخرى - بعد أربع سنوات من حادثة دمشق - هذه المرة في القاهرة ، بعمارة الأضحية

البشرية في احتفالاتهم الدينية ، ثم اتهم يهود آخرون بقتل مسيحيين في الاسكندرية ويورسعيد بعد ذلك بسنوات عدة .

ولم يعد أحد الآن يشير مثل هذه الاتهامات التي أصبحت تعتبر من التصرفات المعادية للسامية !

مجرة اليهود إلى مصر في عصر محمد علي

كان احتلال العثمانيين لمصر عام ١٥١٧ نقطة تحول في تاريخ اليهود المقيمين بها ، إذ أتاح العثمانيون الفرصة للجالية اليهودية في مصر للعمل في التجارة إلى جانب بعض المهن الأخرى ، بل إن العثمانيين في أوج انتصارتهم استخدمو اليهود في جهازهم الإداري فكان لهم الإشراف على الأمور المالية وجمع الضرائب والرسوم الجمركية . واستعان غالبية الولاة العثمانيين على مصر بوكلاء من اليهود - كانوا يلقبون « صراف باشا » لإدارة الشؤون المالية . وما لاشك فيه أن هؤلاء الوكلاء أصبحوا أغنياء بسبب وظائفهم الحكومية . وكان رئيس الجالية اليهودية في مصر يعين من بين يهود القسطنطينية في البداية ثم أصبح وزير المالية اليهودي لدى الوالي هو المسئول عنها بعد ذلك . وعندما أصبحت الإمبراطورية العثمانية بالجمود ساءت حالة اليهود في مصر كذلك فأصابهم الجهل والفقر ، وإن كان مستواهم التعليمي تحسن على أثر وصول اليهود المهاجرين من

شبه الجزيرة الإسبانية . وكان اليهود يعيشون - إجمالاً - في القاهرة والإسكندرية وينقسمون إلى ثلاث جماعات : المستعربين الذين يستخدمون اللغة العربية ، والهاجرين الإسبان والمغاربة الذين جاءوا من شمال إفريقيا ، والإسكندرانيون القادمين من أوروبا . وكانت هذه الجماعات في خلاف مستمر . وعندما أعلن شابتاى زيفي أنه هو المسيح الذي يتنتظر اليهود قدومه اعترف به رفائيل بن چوزيف - رئيس الجالية اليهودية في مصر - وكان زيفي زار مصر مرتين قبل ذلك .

وكان اليهود عانوا في فترة سيطرة المالكية من سوء المعاملة ووقعوا تحت رحمة بقوات الأقاليم الذين لم يترددوا في الاستيلاء على ممتلكاتهم في أي لحظة ولأى سبب . والسبب المباشر الذي دفع بالعثمانيين إلى الاتجاه جنوباً هو خشيتهم من تحالف المالكية - وكانوا يسيطرون على مصر وبلاط الشام - مع دولة الفرس وتهديدتهم باقتحام شرق الأناضول . وعلى رغم هزيمة المالكية أمام الجيش العثماني إلا أنهم عادوا إلى الظهور مرة ثانية - هذه المرة داخل النظام العثماني نفسه - فأصبحوا عنصراً قوياً في خدمة الوالي العثماني ومساعدته في حكم البلاد ، وكان زعمائهم يلقب باسم «شيخ البلد » . وعندما انشغل العثمانيون بصراعهم مع روسيا القيصرية في الشمال خلال القرن الثامن عشر ، أعلن على بك الكبير وأبو الذهب استقلالهما بحكم مصر ، وحاولا مد

نفوذهما ليشمل الحجاز ولبلاد الشام .

وصلت الحملة الفرنسية بقيادة ناپلليون إلى أبي قير على الساحل الشمالي لمصر في أول تموز (يوليو) ١٧٩٨ ، واستولت على الإسكندرية في اليوم التالي . وزع ناپلليون بياناً مطبوعاً بالعربية يعلن فيه للشعب المصري أنه صديق للإسلام والسلطان العثماني ، وإنما جاء إلى مصر ليعاقب المالك ويحرر الشعب من سلطتهم . ثم سار بجيشه حتى وصل إلى القاهرة وهزم جيش المالك بقيادة مراد بك في شبراخيت وفي إمبابة . وبينما كان ناپلليون يحاول إقناع علماء الأزهر في القاهرة بحسن نواياه تجاه بلادهم ، قام الأسطول البريطاني بقيادة نلسون بتدمير الأسطول الفرنسي في أبي قير ولما يمر سوی شهر واحد على وصوله . وعندما أدرك أنه أصبح معزولاً في مصر عن مجرى الأحداث في العاصمة الفرنسية وزادت المقاومة المصرية واشتعلت ضد الفرنسيين في معارك كثيرة ، أسرع بمعادرة مصر - التي تركها في أيد كليبر - ووجد هو طريقه عائداً إلى فرنسا . وسرعان ما فشلت الحملة الفرنسية في مواجهة المقاومة المصرية والضغط البريطاني واضطرب الفرنسيون إلى العجلاء عن مصر قبل انتهاء أربعة أعوام على وصولهم إليها .

بعد رحيل الفرنسيين أرسل العثمانيون قوة إلى مصر تتضمن فرقه قوية

من الألبان ، لكن الفرقة الألبانية أعلنت العصيان ، وحاوت الانفراد بحكم البلاد . وعندما قتل قائد التمردين أصبح محمد على - ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره - القائد الجديد للفرقة ، وأعلن ولاءه للباب العالي في الوقت الذي حاول فيه تدعيم نفوذه الشخصي في مواجهة العثمانيين والمماليك على السواء . وعندما اندلعت الثورة في القاهرة عام ١٨٠٥ ضد خورشيد باشا الوالي العثماني ، اختار علماء الجامع الأزهر - وكان هو المؤسسة التعليمية الوحيدة في البلاد - محمد على ليكون ولياً على مصر ، في حين كان خورشيد باشا محاصراً في القلعة . ولم يجد السلطان سليم الثالث بدأ من قبول اختيار المصريين محمد على فشيته في هذا النصب . وهكذا أصبح ولياً على مصر بعد ثلاثة أعوام من جلاء الحملة الفرنسية عنها ، واستمر في حكم البلاد حتى منتصف القرن التاسع عشر .

استطاع محمد على القضاء على نفوذ البكوات المماليك عندما أصدر أوامره لحراسه بقتلهم عام ١٨١١ أثناء خروجهم من وليمة كان دعاهم إليها في قلعته بالقاهرة . وباختفاء طبقة المماليك ملاك الأرض ، اختفى مصدر عدم الاستقرار السياسي الذي كان قائماً لقرون قبل ذلك ، وأصبح محمد على هو المالك الوحيد للأرض الزراعية في مصر ، وإن بدأ بعد ذلك في توزيعها على أفراد عائلته والموالين له .

وكان محمد على يطمح إلى تطوير نظام الاقتصاد في مصر والاستفادة من الثورة الصناعية في الغرب ، وأدرك الوالى الجديد أهمية العلوم الحديثة في بناء دولة قوية ، فاعتمد منذ البداية على خبراء عسكريين فرنسيين كانوا تقاعدوا من عملهم بعد هزيمة نابليون . وكان محمد على أول من استخدم الفلاحين المصريين جنوداً في جيشه الجديد ، وإن لم يصبح للمصريين الحق في الحصول على المراكز القيادية في الجيش إلا بعد انتشار التعليم في عصر أحفاده . وسرعان ما تمكن محمد على من مد نفوذه على السودان وفلسطين وسوريا ، وساعدته الحملات الحربية التي قام بها في تدعيم نفوذه في حكم مصر ، ولكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بسيطرته على بلاد الشام بسبب اعتراض بريطانيا والقوى الأوروبية الأخرى .

وأرسل البعثات التعليمية إلى فرنسا وأقام نظاماً للتعليم المدنى ، تاركاً الأزهر يتخصص في العلوم الدينية . وكان لإقامة مطبعة حكومية في عصر محمد على - بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على ظهورها في المانيا - أثر كبير في نشر التعليم في البلاد . ونفذ محمد على إصلاحات مهمة واستطاع إعادة تنظيم الجهاز الإداري على الطريقة الأوروبية ، ونظم تحصيل الضرائب والقضاء والخدمات الصحية والتعليم . وكان أهم إصلاحاته يتعلق بالزراعة إذ نظم وسائل الرى ، وعمل على إقامة صناعة مصرية . وكان لانتشار الأمن في البلاد مع وجود سلطة مركبة قوية أثر

في تنشيط الأعمال التجارية - خصوصاً بعد حفر قناة السويس في ما بعد - وارتفاع مستوى معيشة الأفراد . وأقام محمد على نظاماً للقضاء المدني قتم تشكيل محكمتين للفصل في الأمور التجارية والقضايا التي تقوم بين أفراد ينتمون إلى طوائف متعددة ، واحدة في القاهرة والأخرى في الإسكندرية وكان القضاة يختارون كذلك من بين الطوائف المختلفة . وتمكن محمد على قبل فترة قصيرة من وفاته من الحصول على موافقة الباب العالي باستقلاله بحكم مصر الذي أصبح وراثياً له ولعائلته من بعده . وتحسن حال اليهود كثيراً منذ بداية حكم محمد على ، واستمرت في التحسن تحت حكم سلالته من بعده ، وكانت الدولة تحميهم هم وأملاكهم ، وعاملهم محمد على معاملة عادلة في مسائل الضرائب فساواهم مع غير المسلمين في مصر . وأدى انتشار الأمن والطمأنينة في أيام محمد على إلى هجرة العديد من اليهود بإيطاليا واليونان إلى مصر فزاد عدد أفراد الجالية اليهودية من القرائين والربانيين الذين عاشوا في المدن وتعاملوا في التجارة والخدمات العامة .

ويحسب ما جاء في كتابات كلود بك - الطبيب الفرنسي الذي استخدمه محمد على ليعمل على تحسين المستوى الصحي في البلاد - كان هناك حوالي سبعة آلاف من اليهود يعيشون في مصر في بداية حكم محمد على في أوائل القرن التاسع عشر . ويحسب التعداد الذي قام به

البريطانيون عند احتلالهم لمصر وصل العدد قبل نهاية هذا القرن الى ٢٥ ألفاً ، كما زاد عدد أفراد الشعب المصري - في تلك الفترة - من مليونين الى تسعة ملايين ، وان كان جزء كبير من هذه الزيادة يرجع إلى هجرات العرب والأجانب إلى مصر للاستفادة من تحسن ظروف الحياة فيها أيام حكم محمد على وأسرته .

وتوزعت إقامة غالبية اليهودية بين القاهرة والإسكندرية وبور سعيد وطنطا والمنصورة والإسماعيلية والسويس والخليل الكبير وميت غمر وزفتى ، وكان عملهم بشكل أساسى فى المسائل المالية وعمليات الصرافة والتسليف والرهونات وكذلك فى تجارة التجزئة ، ثم اشتركوا فى عمليات الإنتاج الصناعى واستطاع عدد كبير منهم الحصول على حماية بعض الدول الأوروبية عن طريق الحصول على جنسية هذه الدول مع إقامتهم فى الأراضى المصرية .

ولا شك فى أن محاولة محمد على ، وان فشلت فى تحقيق ما كانت تهدف إليه فى البداية من الاستقلال بالعالم العربى عن الإمبراطورية العثمانية ، بنيت - بالنسبة إلى مصر - فى تحقيق أول خروج عن السيطرة التركية . إلا أنها فى الوقت نفسه أبعدت مصر لمدة طويلة عن الاشتراك فى تطورات الوضع فى المنطقة العربية . وكان للنجاح العسكرى الذى حققه محمد على فى البداية رد فعل سرعان أدى إلى تحالف القوى

الأوروبية ضده سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي لمنع تحقيق أمنيته بكل الوسائل ، إذ كان من الممكن أن تدخل مصر مرحلة الثورة الصناعية مثل باقي الدول الأوروبية . ولا شك كذلك في أن استقرار الأمن ونمو الحركة التجارية في أيام محمد علي شجعا اليهود على الهجرة إليها فصاروا قوة مهمة في المجتمع المصري عملت الحركة الصهيونية في ما بعد على اكتسابها لصالح أهدافها الجديدة في الحصول على وطن لليهود في فلسطين .

الفلسفة اليهودية الحديثة

ترفض فكرة الشعب المختار

واجه الأُخبار اليهود في أوروبا الغربية - خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - أكبر تحدي لسلطتهم ، كان الأخطر في أي مرحلة من مراحل تاريخهم الطويل ، وأدركوا عجزهم عن الاستمرار في فرض سيطرتهم واعتقاداتهم على أفراد الطوائف اليهودية . وكان لانتشار حركة التنوير الفكري في أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، ثم لنجاح الثورة الفرنسية بعد ذلك بثلاثة قرون ، أثر بالغ الأهمية على سلوك الأفراد اليهود بدول أوروبا الغربية ، فبعد أن كانت المجتمعات الأوروبية تفرض عليهم المعيشة داخل أسوار مغلقة في مناطق محددة وارتداء ملابس مميزة ، أصبح من حق اليهود شراء العقارات والانتقال بحرية في أي مكان . وبعد أن كان محظياً عليهم الاشتغال إلا بالمهن الثانوية والمكرهة - مثل التسليف بالري巴 - أصبح من حقهم الحصول على الوظائف الحكومية والالتحاق بصفوف الجيش والعمل في أية مهنة يختارونها ، كما صار من

حقهم تلقى العلم في المدارس والجامعات المدنية . وخشى قادة اليهود من أن يؤدي هذا الانفتاح إلى ذوبان اليهود في بوتقة المجتمعات التي يعيشون بها وفقدانهم لاستقلاليتهم ، مما يقضى على فكرة الشعب المختار . فبينما كان أفراد اليهود يعانون من العزلة الاجتماعية المفروضة عليهم ويتمنون التحرر من سلوكهم من كل القيود والمساواة مع باقى أفراد المجتمع ، اعتبر الأخبار أن هذه العزلة ضرورية لضمان استمرار الاعتقاد الرباني بأن اليهود هم الشعب المختار .. وهم ما زالوا في انتظار اليوم الذي يرسل لهم رب « مسيحه الملك » لينصرهم على أعدائهم من الشعوب الأخرى .

حدث هذا التطور في الفكر اليهودي في غرب أوروبا حيث ساعد انتشار الفكر التنويري على خروج اليهود من عزلتهم والاندماج في المجتمعات التي يعيشون بها ، ولم يكن الأمر على المستوى نفسه في بلدان شرق أوروبا . ولأن حياة اليهود في أوروبا طوال تاريخهم الطويل كانت تقوم على أساس من العزلة الاجتماعية والعداء المتبادل مع المجتمعات التي يقيمون فيها ، فإن التطور الذي حدث في النظم الاجتماعية في أوروبا وقبول أفراد الطوائف اليهودية على أنهم مواطنون في بلدانهم لهم الحقوق نفسها مثل باقى المواطنين وعليهم الواجبات نفسها ، دفع بعض المفكرين اليهود إلى القول بوجوب التخلص عن العزلة الطائفية والذوبان في المجتمع . وبينما كانت الفكرة القديمة تقوم على أن اليهود يمثلون شعباً واحداً

متفرقاً في بلدان عدة ، اعتبر المفكرون اليهود الجدد أن اليهودية ليست شعراً وإنما هي ديانة وأن اليهود جماعة دينية ، وجزء من المجتمع الذي يعيشون فيه . كما ظهرت فكرة جديدة في هذه الفترة عن المسيح المنتظر ، فبينما كانت الفكرة التقليدية تقول بأن المسيح الملك الذي سيأتي من سلالة داود سوف ينصر اليهود ويعيد بناء معبد القدس ويجتمعهم حوله ، قال المفكرون الجدد - الذين قبلوا ضمنياً أن يسوع هو المسيح - أن عنصر الخلاص سيأتي في نهاية الأيام ويشمل كل البشر ، الذين يعيشون سوياً في مجتمع العدالة والصلاح .

وساعدت التطورات التي حدثت في المجتمعات الأوروبية اليهود، منذ بداية عصر التنوير ، على الخروج من عزلتهم تدريجياً والانفتاح على المذاهب الفكرية الجديدة ، وكان الأحجار يحرمون الفكر الفلسفى ، وأقبل اليهود بهم على الدراسات الفلسفية حينما تم تحريرهم والسماح لهم بالاشتراك في نشاطات المجتمع المسيحي ، فبدءوا يحاولون الإجابة على الأسئلة الفلسفية التقليدية وظهرت الأفكار الفلسفية أولاً بين صفوف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية سواء في سبه الجزيرة الإسبانية أو الذين هاجروا منها واستقروا بفرنسا وإيطاليا وهولندا ، في محاولة منهم لإيجاد تفسير للديانة المسيحية يتفق مع اعتقاداتهم اليهودية السابقة . حتى أنه في هذه الفترة ظهر فرع مسيحي لذهب « القبالة » اليهودي ، الذي يقرب

ما بين الديانتين . وكانت أمستردام بهولندا أحد المراكز المهمة لجتماع اليهود الذين اعتنقوا المسيحية خلال القرن السابع عشر ، والذين لجحوا إلى الفلسفة الأوروبية في محاولة لتفسير موقفهم . وكما ظهرت الاتجاهات الفلسفية التي تقرب بين اعتقادات الديانتين بين هؤلاء ، ظهرت كذلك اعتقادات تختلف مع الفكرين اليهودي والمسيحي معاً .

وكان أول من دخل منهم حلبة الفكر الفلسفى فى المانيا هو موسى مندلسون بكتاباته فى علوم النفس والجماليات ، ما وراء الطبيعة وأصبح مندلسون - وكان صديقاً للفيلسوف إيمانول كانت - أحد أعلام حركة التنوير فى المانيا ، كما حاول التدليل على أن بعض الاعتقادات الفلسفية التى سادت خلال القرن الثامن عشر والتى كانت تقول بوجود الإله الخالق وتذكر الوحي ، ماهى إلا اعتقادات يهودية فى أصلها . وساعد نقد التوراة الذى قام به إسحاق لايرير على ظهور مذهب إيديولوجى جديد فى فلسفة اسپينوزا .

وكان لأفكار باروخ اسپينوزا - وهو فيلسوف يهودي هولندي ولد فى أمستردام عام ١٦٣٢ ومات فى الخامسة والأربعين من عمره - أثر كبير ليس فقط بين اليهود وإنما فى الفكر الأوروبي الحديث بشكل عام . كانت عائلة اسپينوزا هاجرت من البرتغال تحمل معها بذور الفلسفة

الإسلامية من الأندلس ، فعملت على إلحاقه بالمدارس المدنية لتلقي العلوم الحديثة والفلسفة الغربية الجديدة ، مما جعله منبوداً من الطائفة اليهودية في أمستردام التي قررت طرده من صفوفها . وبينما اشتغل اسپينوزا في إنتاج عدسات النظارات الطبية فهو أمضى وقت فراغه في دراسة مذاهب الفكر والفلسفة . وتضمن أهم أعماله « رسالة سياسية لاهوتية » نقداً للفكر التوراتي داعياً للنظر إلى التوراة ، لا على أنها تتضمن الحقيقة الفلسفية أو العلمية ، ولكن باعتبارها مرشدًا أخلاقياً وروحانياً . وبدأ اسپينوزا من بعض الأفكار التي ظهرت بين أفراد الطائفة اليهودية في هولندا واعتبرها الأخبار خروجاً على الفكر اليهودي ، وطورها ليصبح مذهبًا لتفسير العالم تفسيراً عقلياً مع مبادئ العلوم الطبيعية ، وسرعان ما سادت فلسفة اسپينوزا التي أصبحت تعتبر ممثلة للفكر الأساسي للإنسان الحديث ، وكان لها أثر كبير في فلاسفة عصر التحوير خصوصاً في المانيا ، حتى أصبح اسپينوزا رمزاً للفلسفة الحديثة .

كان المفكرون اليهود خلال العصر اليوناني والعصور الوسطى يعتبرون أن التوراة والتلمود هما من الوحي الإلهي الذي يجب الالتزام به حرفيًا على مدى العصور . فجاء المفكرون اليهود منذ القرن الثامن عشر يقولون بأن اليهودية ما هي إلا ديانة من صنع الإنسان ، تطورت خلال الزمن لتأخذ أشكالاً متعددة من الممكن في العصر الحديث عدم قبول بعض

أجزائها . كما قبل الفلاسفة اليهود الجدد فكرة اعتبار العالم يسير حسب قوانين الطبيعة . وفي هذه الفترة فرق اليهود - للمرة الأولى - بين العلم والفلسفة ، فأدركوا أن المعرفة العلمية التي تعتمد على التجربة والحواس تختلف عن الفلسفة التي تعتمد على العقل والمنطق . وأصبح هناك تباعد بين الاعتقادات اليهودية التقليدية وبين فكر الفلاسفة اليهود الحداثيين . بل أن أفكار عصر النهضة وقبول المجتمعات الأوروبية الحديثة لليهود كمواطنين بها والكف عن محاولات تنصيرهم ، أدت إلى حدوث تغير جوهري في الفكر اليهودي التقليدي ذاته ، وبدأ اليهود يرفضون بعض اعتقاداتهم القديمة - وكانتا يعتبرونها قضايا مسلمة - على أنها لا تتفق مع منطق العقل . وتطور الأمر عندما ظهر بعض الفلاسفة اليهود الذين اعتبروا اليهودية كما لو كانت مجرد نوع من الثقافة والفكر الاجتماعي وليس ديانة .

وفي القرن التاسع عشر - عندما انتشرت أفكار الثورة الفرنسية الخاصة بالمساواة بين المواطنين بصرف النظر عن أصلهم السلاطى أو اعتقاداتهم الدينية - أصبح لليهود الحق فى الالتحاق بالجامعات بل والتدريس بها ، وراحوا يشتغلون فى جميع نواحي النشاط الذهنى . ومع نهاية القرن التاسع عشر - وكان العداء لليهود كاد يختفى تماماً فى المجتمعات الأوروبية - كانت غالبية اليهود خرجت من عزلتها

وأندمجت في المجتمعات الجديدة .

وحدثت تغيرات أساسية في الفكر اليهودي منذ نهاية العصور الوسطى ، وبدأت حركة تنوير عام ١٧٧٠ داخل الطائفة اليهودية أطلق عليها اسم « هسكله » وكان أفرادها يسمون « مسكليم » ونادت حركة هسكله بضرورة إدخال المواد العلمية في دراسات التلاميذ اليهود ، وكان الأخبار لا يعلمونهم سوى التوراة والتلمود ، إذ كان الاعتقاد السائد أن دراسة المواد الأخرى تبعد الطلاب عن الاعتقادات اليهودية . كما عملت هسكله على اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون بها وتعلم لغاتها وأداب السلوك الاجتماعي وطالبتهم بالانتماء إلى مجتمعاتهم . واعتبر المتكليم أن الطريقة الوحيدة للحصول على التحرر والمساواة في مجتمعاتهم هي أن يقوم اليهود أنفسهم بقبول هذه المجتمعات والذريان داخلها . ولهذا السبب عمل المتكليم على اشتراك اليهود في الأعمال الإنتاجية في مجال الزراعة والصناعة وليس الاقتصار على الأعمال الهامشية مثل التسليف والتجارة .

وظهرت ثلاث جماعات متباعدة داخل الطائفة اليهودية خلال القرن التاسع عشر لكل منها فلسفتها الخاصة ، وبينما ظلت الطائفة الأولى تعمل على الحفاظ على الفكر اليهودي الرباني الذي يعتمد على

التلמוד ، وإن كانت اضطررت إلى محاولة التوفيق بين هذه الاعتقادات وبين الرغبة في قبول الانفتاح على المجتمع الأوروبي والاندماج فيه ، وكانت هذه الجماعة ترغب في عدم تخلٍّ اليهود عن انتمائهم إلى الكيانات الطائفية ، كانت الطائفة الثانية - التي تطورت بعد ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية لتصبح الحركة المحافظة - مع التزامها بتعاليم اليهودية الربانية ، تنادي بتحقيق التعاليم اليهودية لتتفق مع التغيرات التي حدثت في المجتمعات التي يعيشون بها . ونادت الجماعة الثالثة التي عرفت باسم الحركة الإصلاحية الليبرالية بتحقيق طقوس العبادة اليهودية القديمة مع الاحتفاظ بجوهر الاعتقاد بالتوحيد . وأمام هذا التطور الذي كان يسير في طريق ذوبان اليهود في مجتمعاتهم وتحول اليهودية إلى ديانة - لا تعتمد على فكرة الشعب المختار - بدأت في روسيا القيصرية بذور الحركة الصهيونية التي جعلت شعار الشعب اليهودي جوهر مبادئها وأساس أهدافها .

ظهور جماعات « حبات صهيون » وبداية حركة اليهودية السياسية

كان لانتشار أفكار التثوير ومبادئ الثورة الفرنسية في بلدان أوروبا الغربية أثر مهم في تحرير اليهود من عزلتهم الطائفية واعتبارهم مواطنين لهم الحقوق والواجبات نفسها في مجتمعهم مثل باقي المواطنين من غير اليهود . وبالطبع فإن غالبية الأفراد اليهود خرجن من عزلتها الطائفية والدمجت مع باقي أفراد المجتمع . وأدى انتشار التعليم المدني بينهم إلى ظهور مفكرين وفلاسفة وعلماء مشهورين . إلا أن هذا الانتصار والتحرر صاحبها خوف من جانب قادة الجماعات اليهودية أن يؤدي هذا الانفتاح إلى انتهاء الكيان المستقل لليهود الذي ظل قائماً لقرون من السنين .

ولما كانت اليهودية الربانية تقوم على اعتبار اليهود هم « شعب الله المختار » وأن النصر الإلهي الذي يتظارونه سوف ينصرهم على أعدائهم من الأمم عندما يقودهم مسيحهم في حكم العالم بأجمعه ، فإن ذبيان اليهود

داخل المجتمعات التي يعيشون بها لابد وأن يتعارض مع هذا الاتجاه . ومع هذا لم يتمكن قادة الطوائف اليهودية في أوروبا الغربية من الوقوف في وجه التيار ، إذ أقبل اليهود منهم على المكاسب الجديدة التي حصلوا عليها . بل إن بعضهم كان على استعداد للتخلص عن الديانة اليهودية نفسها . إلا أن الوضع كان مختلفاً تماماً في دول أوروبا الشرقية التي تأخرت في منح اليهود حقوق المواطنين ، وهنا بين جماعات اليهود الإشكناز - وكانوا يمثلون ٩٠ في المائة من يهود العالم - ظهرت الأفكار والجماعات التي قادت ذويان اليهود في مجتمعاتهم ، بل إن القادة الجدد قالوا إن اليهودية ليست ديانة على الإطلاق وإنما هي رباط قومي يجمع بين أفرادها أينما تفرقوا ، وهو المحور الذي دارت حوله الحركات الصهيونية في مابعد .

وأول ما ظهرت الحركة التي عرفت في مابعد باسم الحركة الصهيونية كانت رد فعل للتغيرات الفكرية بين اليهود خلال القرن التاسع عشر ، مثل قيام حركة هسكله التي تهدف إلى نشر الفكر التنويري بين اليهود ، وحاوت إذابة الجماعة اليهودية بالمانيا داخل المجتمع الألماني ، وكانت هسكله ترى وجوب خروج اليهود من عزلتهم وارتباطهم بمجتمعاتهم حتى يمكن للآخرين قبولهم كمواطنين معهم ، ولكن كان هناك فريق آخر من اليهود الذين أدركوا أن هذا الاتجاه يعني بالضرورة اختفاء الكيان

الطوائف لليهود وبالتالي - في اعتقادهم - اختفاء اليهودية نفسها . قام هؤلاء بتحريض اليهود في مطبوعاتهم مثل « هاشامار » و « هاما جيد » على رفض الذوبان في المجتمع . بل أن بعضهم قال إن اليهودية في أساسها ماهي إلا ارتباط قومي وليس اعتقاداً دينياً . واعتمدت الحركة الصهيونية على فكرة الخلاص المسيحي الذي ينتظره اليهود - بعد أن أفرغتها من المضمون الروحاني - وتحولتها إلى فكرة سياسية تهدف إلى إقامة وطن قومي لليهود . وكان اليهود أصبحوا بخيبة أمل كبيرة على أثر ظهور شابتاً زيفي ، إذ اعتقدوا بأنه هو مسيحهم المنتظر ، فإذا به يترك اليهودية ويتعنق الإسلام داعياً يهود العالم لاتباع الطريق نفسها .

وكانت الطوائف اليهودية في بلدان أوروبا الغربية بدأت تفقد تماسكها ومبرر وجودها بعد أن قامت هذه البلدان بإلغاء القيود التي كانت مفروضة على اليهود وساوت بينهم وبين باقي المواطنين ، فأصبح لهم الحق في الدراسة في الجامعات والعمل في أي مهنة يختارونها بما في ذلك الوظائف الحكومية وشراء العقار والإقامة في أي مكان يرغبون فيه . وساعد التعليم المدني في إحداث تغير كبير في الفكر اليهودي جعلهم يخرجون من عزلتهم معتبرين أن اليهودية ليست كياناً اجتماعياً وأن اليهود ليسوا شعباً أجنبياً في البلدان التي يعيشون بها ، وإنما هم مواطنون في هذه البلدان لهم اعتقادات ومارسات دينية مختلفة . وأصبح هذا الوضع

يهدد بذوبان الكيانات اليهودية داخل مجتمعاتها واحتفاء النظام الطائفي تماماً . إزاء هذا الوضع الذي اعتبره قادة اليهود خطراً على تماسك واستقلال كيانهم الاجتماعي ، ظهرت في شرق أوروبا - في روسيا القيصرية وبولندا ورومانيا - حركة مضادة تهدف إلى الحفاظ على الجوهر القومي في الفكر اليهودي ، باعتبار أنهم طوائف تعيش متفرقة في مختلف بلدان العالم ، ولكنها تتطلع إلى اليوم الذي يمكنها فيه أن تجتمع في وطن قومي واحد ، والحركة الجديدة التي عرفت باسم « جهات صهيون » - أي الحب لصهيون - التي قامت خلال القرن التاسع عشر ، عملت على تذكير اليهود بأنهم غرباء منفيون في البلدان التي يقيمون بها وعليهم الاحتفاظ باستقلالهم والاحساس بانتمائهم إلى فلسطين .

وبدأ بعض الدعاة منذ منتصف القرن الثامن عشر ينادي بضرورة العمل على تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين ، وقام حاييم لورج بتكون شركة في مدينة فرانكفورت الألمانية هدفها تهجير اليهود لهذا الغرض ، ومع هذا فإن هذه الدعوة لم تجد آذانا صاغية من اليهود في بدايتها ، وكانت غالبيتهم تطمع في الاستفادة من تحسين وضعهم في البلدان التي يعيشون بها . ورجدت « جهات صهيون » صعوبة في البداية في إقناع اليهود بأهدافها السياسية . حيث كان الأعقاد الدينى يقول بعدم الذهاب

إلى القدس إلا بعد مجيء المسيح . وحاول انتشيل روتشارلد شراء الأرض الفلسطينية من محمد على باشا عندما كانت تخضع لسلطانه ولكن الوالي رفض هذا العرض . وبدأ النقاش في المانيا والبحر في ستينات القرن التاسع عشر لتحديد طبيعة اليهودية وما إذا كانت تعتبر حركة قومية أم ديانة وعبادة ، وبينما أصر البعض على اعتبار اليهود شعباً انتهى النقاش باعتبار الأغلبية أن اليهود مواطنون في البلدان التي يعيشون بها ، وقرروا حذف النصوص المتعلقة بالدعوة القومية ، وكذلك أي إشارة إلى صهيون أو القدس من كتب الصلاة اليهودية ، التي يجب أن تقوم على الاعتقادات الدينية فقط .

إلا أن الوضع اختلف عن ذلك تماماً في دول الشرق حيث انتشرت مبادئ « حبات صهيون » بسرعة وسط الشباب اليهودي . وأول مابدأ به حركة « حبات صهيون » في روسيا القيصرية في وقت عانى اليهود في شرق أوروبا ، خصوصاً بعد مقتل القيصر الإسكندر الثاني عام ١٨٨١ ، ووجود فتاة يهودية بين المتهمنين باغتياله وتعرض اليهود لحملات حكومية وشعبية ضدهم أجبرت عدداً كبيراً منهم على الهرب خارج البلاد . وتكون العديد من جمعيات الشباب اليهودي المحبين لصهيون في روسيا وبولندا ورومانيا ، الذين عملوا على تعلم اللغة العبرية والتثمير بوطن لليهود لا يخضعون فيه لسلطة غيرهم . وبينما طرح البعض هجرة يهود شرق

أوروبا إلى فلسطين أرض الآباء ، فإن الغالبية العظمى منهم فضلت الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية - هاجر مليونان وستمائة ألف يهودي إشكنازى من روسيا وشرق أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ما يزيد على مقتل القيصر الروسي وقيام الحرب العالمية الأولى - ولم يذهب إلى فلسطين سوى عدد قليل منهم . واعتبرت الحكومة العثمانية على فتح باب هجرة اليهود إلى فلسطين ، ومع نهاية ثمانينات القرن التاسع عشر تبين فشل المستوطنيين اليهود في فلسطين وعدم استطاعتهم الحياة هناك دون مساعدة خارجية ، ولولا تدخل البارون ادموند دى روتشارلد بمساعدته المالية لعاد المهاجرون إلى أوطانهم الأصلية .

و انعقد المؤتمر الأول لجمعيات حبات صهيون في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٤ ، وكان غالبية الحاضرين من روسيا ، واستطاعت حركة حبات صهيون تشكيل مئة جمعية فرعية لها في روسيا بلغ عدد أعضائها ١٣ ألفاً . وعلى أمل اجتذاب يهود البلدان الغربية ، قرر المجتمعون - بعد أن أدرکوا فشل الحركة في تحقيق تجمع حقيقي للطوائف اليهودية المنتشرة في العالم - تكوين مركز لهم في برلين ، ومع هذا فشلت الحركة في العثور على شخصية يهودية المانية معروفة تقبل رئاسة مركز برلين ، فعدل عن هذا القرار ، وإدراكا منها لعدم إقبال يهود غرب أوروبا على الانضمام إلى

الحركة ، عقد الاجتماع الثاني لجات صهيون في روسيا في حزيران (يونيو) ١٨٨٧ ولم يحضره سوى المندوبيين عن الجماعات الروسية . وقرر المؤتمر فتح مكتب للحركة في مدينة يافا الفلسطينية تعمل على شراء الأراضي في فلسطين وتوطين المهاجرين من الروس فيها . وعارضهم في خطتهم أحد المفكرين اليهود « أحدهما أم » الذي قال أن الحصول على أرض فلسطين موطنًا لليهود لن يحل المشكلة اليهودية ، وطالب بأن تكون هذه الأرض مركزاً روحاً - أو كعبة - لليهود ، وليس موطنًا لهم . وكان السبب الذي دفع هذا المفكر اليهودي إلى رفض الخيار الفلسطيني لإقامة وطن اليهود أنه لا يمكن استيعاب كل الطوائف اليهودية المنتشرة في العالم ولهذا فضل هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومحاولة البقاء في روسيا مع العمل على تحسين أحوالهم هناك . وبدأت الحركة تزداد شعبية عندما أصبح تيودور هيرتزل - الذي كان لا يؤمن بالأديان ويعمل صحافياً فيينا - رئيساً للحركة الصهيونية الوليدة العام ١٨٩٧ . وكان هيرتزل في البداية من أشد المتعصبين لذويان اليهود في مجتمعاتهم حتى أنه اقترح عليهم أن يطلبوا التعميد المسيحي جماعياً عسى أن يضع هذا حداً للمشكلة ولكنه تراجع عن هذا الاتجاه وصار يطالب بضرورة أن يهاجر اليهود إلى أرض ليس بها سكان ،

ويقيموا لأنفسهم دولة لا يحكمهم فيها أجنبي ، ولهذا الغرض اقترح تكوين لجنة مهمتها البحث عن المنطقة الصالحة ليقوم اليهود بالطالة بحقهم في إقامة دولتهم بها . وكان على استعداد للموافقة على اختيار مناطق من الأرجنتين أو أوغندا لتكون هي موطن الدولة اليهودية المقترحة .

إلا أن النجاح الحقيقي للحركة الصهيونية لم يتم إلا عندما أصبح نفوذها يمتد في دول أوروبا الغربية ، وعندما أمكن اقتساع اليهود الغربيين بعدم وجود تعارض بين حصولهم على حقوق المواطنة في بلدانهم الغربية وبين اشتراكهم في بناء وطن قومي لليهود ، وأصبحت هذه العملية أكثر سهولة بعد أن هاجر العديد من يهود الشرق ليقيموا في الغرب . ومن بين هؤلاء ظهر حايم وايزمان في بريطانيا الذي وضع الأحلام الصهيونية موضع التنفيذ .

انتقال قيادة الحركة الصهيونية إلى بريطانيا العظمى

كان نجاح اليهود في إقامة علاقة مع الإنجليز - السادة الجدد لمنطقة الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر - هو بداية الطريق لعودة حاييم وايزمان عام ١٩١٧ ومعه تفويض من حكومة صاحب الجلالة لتكوين دولة إسرائيل الجديدة على أرض فلسطين .

لم يصل اليهود إلى الجزر البريطانية إلا في القرون الوسطى ، وكانت أول مجموعة هناك هاجرت من مقاطعة نورمندي بشمال فرنسا إلى إنجلترا في أيام ويليام الفاتح خلال القرن الحادى عشر . وكان المهاجرون الأوائل يشكلون مجموعة صغيرة من رجال المال والتجارة توزعت على معظم المدن الكبيرة في ذلك الوقت . ولم يمض قرن من الزمان حتى واجه يهود إنجلترا الاتهام بقتل الأطفال المسيحيين - في مدن نوريتش ثم بيرى سانت ادمونس وبرستول - كأضحية بشرية في عيد الفصح ، وكانت هذه أول مرة توجه هذه التهمة إلى اليهود في أوروبا . وعندما بدأت الحركة الصليبية عند جلوس ريتشارد الأول على العرش ، بدأت

المظاهرات الحماسية وأعمال الشغب التي راح ضحيتها العديد من اليهود لندن عام ١١٨٩، كما تم إحراق صكوك الديون والسلف التي أخذها اليهود في الوقت نفسه، وانتشرت هذه الظاهرة بعد ذلك في المدن الإنجليزية الأخرى.

وعندما جاء إدوارد الأول قام عام ١٢٧٥ بإصدار مرسوم يحرم على اليهود التعامل بالربا، وسمح لهم بالاشغال بالتجارة واستئجار المزارع. ومع هذا استمر اليهود في التعامل بالربا سراً فقرر الملك في ١٨ تموز (يوليو) ١٢٩٠ طرد جميع اليهود من إنجلترا، فذهبوا إلى فرنسا والمانيا، ولم يكن عددهم يزيد على أربعة آلاف. واستمر اليهود منوعين من الهجرة إلى إنجلترا إلى أن تم طردتهم من إسبانيا والبرتغال على أثر سقوط دولة الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر. وبدأ اللاجئون الإسبان في الهجرة إلى لندن منذ أيام هنري الثامن، وزاد عددهم أيام الملكة إليزابيث. وكان لترجمة كتب العهد القديم إلى اللغة الإنجليزية في عهد الملك جيمس خلال القرن الخامس عشر أثراً كبيراً في تغيير شعور العداء الذي كان سائداً بحق اليهود من قبل. ثم أصدر البرلمان الإنجليزي قراراً عام ١٦٩٨ يمنع الممارسات المعادية للمسيحية، ويسمح بشرعية قيام العبادة اليهودية في البلاد.

بعد ذلك ازداد عدد أفراد الطائفة اليهودية في إنجلترا كما ازدادت ثرواتهم وأهميتهم الاجتماعية ، وكانت غالبية القادمين الجدد من سلالة المهاجرين من شبه الجزيرة الإسبانية من السفارديم الذين استقروا كذلك في دبلن بإيرلندا .

وكانت الطبقة المهمة في الطائفة اليهودية تتكون من السمسرة والتجار الذين يقومون باستيراد البضائع الأجنبية ، ثم بدأ اليهود الإشكناز يأتون من المانيا وشرق أوروبا منذ أواخر القرن السابع عشر وكانوا أقل مالاً وثقافة ، وعمل معظمهم كباعة متجمولين في المناطق الريفية . وفي عام ١٧٥٣ تم تقديم مشروع للبرلمان بإعطاء الجنسية لليهود الذين ولدوا خارج إنجلترا ، وكان المولودون في البلاد حصلوا عليها بسبب المولد . ومنذ أواخر القرن الثامن عشر شكل اليهود مجلس المفوضين عن الطوائف اليهودية في إنجلترا الذي أصبح مسؤولاً عن تنظيم علاقات الطوائف اليهودية في ما بينها ، وكذلك علاقات اليهود بشكل عام مع السلطات البريطانية وغير اليهود ، بل إن هذا المجلس - مع امتداد نفوذ الاستعمار الإنجليزي - أصبح يتدخل لصالح الطوائف اليهودية الموجودة بالمستعمرات كذلك . وخلال القرن التاسع عشر عمل يهود إنجلترا على استخدام النفوذ الإنجليزي في حماية مصالح الطوائف اليهودية في جميع أنحاء العالم خصوصاً في بلدان العالم الإسلامي ، وكان لحروب نابليون تأثير

كبير في الطائفة اليهودية في إنجلترا ، إذ بدأت بعض العائلات الإشكنازية - من أمثال عائلة روتشارلز - تختلي مراكز مهمة في النشاط المالي الإنجليزي لوجود علاقات عائلية لها في باقي الدول الأوروبية ، كما أصبح اليهود الإنجليز يطالبون بالحصول على الحقوق نفسها التي منحتها الثورة الفرنسية لليهود من المساواة التامة في الحقوق والواجبات مع باقي المواطنين . وكان يهود إنجلترا في أحسن حال من باقي الدول الأوروبية حيث كانوا يتمتعون بحرية اجتماعية كبيرة منذ البداية ، وكانت القيد التجارية محدودة في مدينة لندن التجارية .

وتقرر حقهم في دخول البرلمان عام 1858 وأصبح ناثانيل دى روتشارلز أول عضو يهودي في مجلس اللوردات بعد ذلك بفترة وجيزة كما صار سير ديفيد سالمونز أول يهودي يصبح عمدة لمدينة لندن 1855 . وأصبح تحرر اليهود كاملاً منذ 1890 حينما تم إلغاء شروط الدين للحصول على أي وظيفة سياسية . وسرعان ما جلس بنiamin دزرايلى - وهو يهودي الأصل والاعتقاد - على كرسى الوزارة نفسها وحصل على أعلى منصب حكومى في البلاد . وكان إسحاق دزرايلى - والد بنiamin - من اليهود السفارديم الذين هاجروا من إسبانيا ، ولكنه قرر الانفصال عن الطائفة بسبب خلاف نشأ بينه وبين قادتها في لندن وقام بعميد أولاده الذين ولدوا في إنجلترا - ومن بينهم بنiamin - كأعضاء في

كنيسة إنجلترا . وبعد إتمام دراسته في المدارس المسيحية ، بدأ بنiamin دزرائيلي حياته كأديب يكتب الروايات الساخرة التي تدور أحداثها حول المجتمع السياسي اللندنـي . وكان من الواضح في أفكاره أنه - وإن قبلَ العادة المسيحية وهو في الثالثة عشرة من عمره - كان أشد تمسكاً بأصله اليهودي ، فهو يؤمن بأن الكنيسة المسيحية بل والحضارة الغربية بأكملها ، مدينة لليهود الذين علموهم القيم الدينية والروحانية . وعن طريق نشاطه الأدبي استطاع دزرائيلي أن يكون علاقات قوية في المجتمع البريطاني ثم التحق بحزب المحافظين وصار من أشد المدافعين عن سياستهم وتطورت أهمية دزرائيلي في حزب المحافظين حيث أصبح عضواً في البرلمان ثم وزيراً للخزانة قبل أن يصبح رئيساً للوزراء وصديقاً للملكة فكتوريا . وكان دزرائيلي خلال سنوات حكمه است - بمساعدة آل روتشايلد - هو الذي اشتري حصة مصر من أشهر قناة السويس لحساب الحكومة البريطانية ، عندما أثقل إسراف الخديوي إسماعيل الميزانية المصرية بالديون عام ١٨٧٥ ، وكافأه الملكة فكتوريا بمنحة لقب أيرلند مقاطعة ييكونزفيلد .

وكانت بريطانيا قد أصبحت قوة سياسية واقتصادية وعسكرية مهمة في تلك الفترة بسبب قيام الثورة الصناعية بها . ففي بريطانيا تطورت العلوم والتجارب وكانت الفرصة المناسبة لظهور أول نتائج الثورة الصناعية ، وساعد في ذلك وجود عدد كبير من الأنهر لتسهل عملية نقل البضائع

وكذلك سهولة الحصول على المواد الخام من البلدان المستعمرة بأسعار زهيدة . وكانت هذه البلدان هي السوق المفتوحة لاستهلاك ما تنتجه المصانع البريطانية . وكانت صناعة الأقمشة تعتمد على أفراد متفرقين يعملون في منازلهم على آلات يدوية مقابل أجر بالقطعة ، إلى أن تم إنتاج ماكينة متطرفة للقيام بهذه العملية عند منتصف القرن الثامن عشر ، أدى إلى تجميع العمال الذين يؤدون عملهم مقابل أجر محدد ، في مكان واحد . وأحدث اختراع الماكينة التي تعمل بقوة البخار عام ١٧٦٣ تطوراً ثورياً في عملية الإنتاج سواء من ناحية الكمية المنتجة أو من ناحية مستوى الإنقان . ساعد توافر مناجم الحديد - وكذلك الفحم الذي يستعمل لصهر هذا المعدن - في الأراضي البريطانية على صناعة الآلات من هذه المادة الصلبة وكانت تصنع قبل ذلك من خشب الأشجار .

وأدّت الثورة الصناعية إلى وجود تجمعات مهمة لليهود الإشكناز في المراكز الصناعية الجديدة مثل مانشستر وبرمنجهام وبرادفورد ، ولو أن بعض اليهود الشوام استقر في مانشستر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت الصناعات التي اهتم بها اليهود خصوصاً تتعلق بإنتاج الملبوسات ، وبالأخص الملابس الجاهزة . وزاد عدد اليهود المهاجرين إلى بريطانيا بعد مقتل القيسار في روسيا عام ١٨٨١ ، وهم جاءوا من روسيا وشرق أوروبا يحملون معهم أفكار حبات صهيون ، فزاد عدد أفراد

الطائفة اليهودية في بريطانيا من ٦٥ ألفاً عام ١٨٨٠ حتى بلغ ٣٠٠ ألف عام ١٩١٤ .

قامت الثورة الصناعية أولاً في إنجلترا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ويطلق هذا التعبير على المرحلة التي تم فيها استخدام الآلة في عملية الإنتاج بدلاً من القوة البدنية سواء للإنسان أو للحيوان . وفي هذه المرحلة بدأ استخدام الماكينات التي تدار بقوة البخار مما ساعد في زيادة الإنتاج الصناعي والزراعي وسرعة وسائل المواصلات . وأحدثت هذه التغيرات آثاراً اقتصادية واجتماعية كبيرة ، فأنتهت حالة المجتمعات الإقطاعية المغلقة وفتحت الأبواب على مصراعيها لنمو التجارة الداخلية والخارجية معاً ، وأدت بالتدريج إلى زيادة أهمية رجال الصناعة والتجارة والمال على أهمية ملوك الأرض وأمراء المقاطعات . وكانت التطورات البطيئة التي حدثت منذ بداية عصر التنوير في القرن الخامس عشر - الذي فتح الطريق لنمو المعرفة العلمية القائمة على التجربة - أدت إلى زيادة الناتج من محصول الأرض الزراعية وببداية عصر الدراسات العلمية التي صحبتها تجارب معملية ، وأدت بدورها إلى زيادة التقدم التكنولوجي القائم على استخدام المعارف العلمية لتطوير وسائل الإنتاج .

وكان من أهم آثار الثورة الصناعية نقل مركز تجمع السكان من الريف إلى المدن الصناعية الجديدة عندما تحولت بعض القرى الصغيرة إلى مدن

عامة بالسكان ، وأدت زيادة الإنتاج وال الحاجة الى الأيدي العاملة إلى زيادة كبيرة في عدد السكان . كما تغير الوضع الاجتماعي للمرأة - بسبب استعدادها لقبول معاش أقل مما يرتضيه الرجل - فخرجت من المنزل وأصبحت تعمل وتحصل على دخل خاص بها جعلها في حالة من الاستقلال وعدم التبعية للرجل . وكان افتتاح مجتمع القرية على السوق الخارجية من أهم العوامل التي ساعدت في زيادة إنتاج المحمولات الزراعية ، وأصبح رجال المال على استعداد لتمويل عمليات الإنتاج لما يحصلون عليه من فوائد نتيجة لهذه العملية . كما بدأت ثورة المواصلات والاتصالات منذ بداية الثورة الصناعية ، عندما تم استخدام قوة البخار في تسخير السفن والقطارات ، وأصبح من يسيراً نقل الناس والبضائع بسرعة أكثر وسهولة أكبر بعد أن كانت الخيول والمركبات والمراكب الشراعية هي وسيلة النقل الرئيسية . وأصبح اليهود الإسكندرانيون على أمور الطائفة اليهودية في إنجلترا منذ نهاية القرن الثامن عشر بعد أن ازدادوا عدداً ومالاً ونفوذاً ، وتم تعيين أحد أحجارهم - سولومون هيرشل - في وظيفة الحبر الأكبر في معبد اليهود بلندن عام ١٨٠٢ وهكذا أصبح الطريق معيّداً أمام الطائفة اليهودية في عاصمة العالم خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، لأن تلعب دوراً مهماً في الحصول على تأييد السلطات البريطانية لخطتها القاضية بإقامة وطن قومي لليهود .

كارل ماركس بين المسائلة اليهودية والخلاص الشيوعي

كان للتغير الاجتماعي الذي حدث في المجتمعات الأوروبية خلال القرن الثامن عشر ، نتيجة لانتشار مبادئ الثورة الفرنسية المتعلقة بحقوق الإنسان والمساواة بين المواطنين ، أثر كبير في الأجيال التالية من شباب اليهود وأصبح في استطاعة العديد منهم دراسة العلوم المدنية في المدارس الحكومية والتعرف للمرة الأولى على المدارس الفلسفية التي حرمتهم عزلتهم من معرفتها . كما كان لنمو المجتمع الرأسمالي الذي يعتمد على النقود ويقوم على أساس تحقيق الربح ، أثره الكبير في حصول عدد كبير من اليهود - و كانوا أول من قاموا بعمليات التسليف والاستثمار المالي بالربا - على مراكز مهمة في المجتمعات الاقتصادية التي ظهرت في أعقاب الثورة الصناعية .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها مفكرون من اليهود يتوجهون بفكرهم إلى المجتمع الإنساني ككل ، وليس إلى الجماعات اليهودية

وحدها . وشهد المجتمع الغربي ظهور عدد من المفكرين من أمثال كارل ماركس وسيجموند فرويد ، كان لفکرهم أثر في كل الشعوب وليس في اليهود فقط . والظاهرة الغربية أن معظم هؤلاء المفكرين كانوا في مذاهبهم الفكرية تأثرين على أصلهم اليهودي ، وإن لم يجعلهم هذا ينتهيون إلى أي جماعة أخرى . فهم في ثورتهم على التعاليم اليهودية رفضوا التعاليم الدينية بشكل عام ، وأصبحوا من الملحدين الذين يؤمنون بالعقل والعالم المادي ويرفضون قبول الوجود الروحي الميتافيزيقي .

من هؤلاء المفكرين اليهود كان كارل ماركس الذي حول فكرة الخلاص على يد المسيح الذي ما زال اليهود يتظرون مجده - وينتظر المسيحيون عودته ليفتح لهم الطريق إلى الجنة - إلى فكرة الخلاص الاجتماعي عن طريق تحقيق المجتمع الشيوعي على هذه الأرض . ومن أجل تحقيق هذا الخلاص الاجتماعي اشترط ماركس ليس فقط القضاء على العلاقة بين الدولة والدين بشكل عام ، ولكن القضاء على اليهودية بشكل خاص . ولا شك في أن شعور العداء الذي كان يسيطر على ماركس كان ناجماً في أساسه من عدائه للشخصية اليهودية التي تعتبر أن تجميع المال فقط - وبأى وسيلة - هو جوهر أهدانها في الحياة وهو رأى هذه النماذج من البشر تخرج من جحورها للمرة الأولى لتسسيطر على كيان الاقتصاد الرأسمالي من أعلى ، مما جعله يبالغ في عدائة لأصحاب الأموال .

ولد كارل ماركس - وهو فيلسوف سياسي الماني مؤسس الاشتراكية العلمية عرف مذهبه باسم الماركسيه وكان أساسا للشيوعية الحديثة - لعائلة يهودية من الطبقة الوسطى ، في الخامس من آيار (مايو) ١٨١٨ في مدينة ترير بمنطقة الراين البروسية (غرب المانيا) . وكان أبوه هينريخ يحمل محاميا بمحكمة التقض ثم موظفا حكوميا ، وقد اعتنق المسيحية في سبيل الحصول على النجاح الاجتماعي . وعندما بلغ كارل السادسة من عمره . قام أبوه بعمادة أولاده الشمانية في الكنيسة اللوثرية . وكان أجداد كارل ماركس لأبيه - لأجيال عدة - من الأخبار التلموديين ، بينما شغل عمه مركز العبر الأكبر لمدينة ترير . كما كان جده لأمه من أخبار هولندا . وبسبب أصله اليهودي أصبح كارل خارجا على التركيبة الاجتماعية التي لم يتمكن من الذوبان بها ، وكذلك كانت غالبية تلاميذه - سواء في المانيا أو في روسيا - من أصل يهودي .

وهكذا فإن الصبي كارل ماركس لم يتبع الدراسة اليهودية وإنما درس التاريخ والفلسفة والقانون في جامعتي بون وبرلين ، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة وهو في الثالثة والعشرين من عمره . وتأثر في فترة دراسته في برلين بفلسفة هيجل وانضم إلى حركة الهيجليين إلا أنه كان يعارض على فلسفته السياسية . وكان المفكر الألماني هيجل الذي عاصر الثورة الفرنسية - ويعتبر من أهم الفلسفه المحدثين - حاول العثور

على إجابات جديدة للقضايا التي واجهتها أوروبا المسيحية بسبب هذه الثورة ، ما هو مصير الإنسان وما هو معنى حياته ؟ وتوصل إلى أن الروح هي جوهر الوجود الحقيقي ، وأن العالم يعي نفسه ويبدو متعركاً نتيجة لوجود صراع في داخله بين قوتين متضادتين ، هما الوجود والعدم . ومع أن ماركس بنى نظريته على أساس من صراع الأضداد ، إلا أنه رفض فكرة الجوهر الروحي الذي قال به أستاذه ، وجعل الهدف الأساسي هو تحقيق الخلاص في الحياة الدنيا . وكان الخلاص الماركسي يتمثل في العمل على إقامة نظام اقتصادي واجتماعي يتحقق الإشاع لاحتياجات كل المواطنين ، فلا يكون هناك غنى وفقر ، ولا سيد وخادم . وتعليقًا على دوره في تغيير فلسفة هيجل ، قال كارل ماركس إنه وجد هيجل واقفاً على رأسه فأوقفه على قدميه ، مشيراً إلى اهتمام هيجل بالصراع في الفكر والروح الذي نقله ماركس إلى صراع طبقي داخل المجتمع .

وقفت آراء ماركس عقبة في طريق حصوله على وظيفة للتدرис فانتجه إلى العمل بالصحافة ، وأصبح رئيساً لتحرير مجلة « راينسيخ زايتنج » الليبرالية بعد فترة قصيرة من اشتغاله بها إلا أن السلطات الألمانية سرعان ما أوقفت المجلة فسافر ماركس إلى باريس وفي فرنسا انضم للجماعات السياسية الاشتراكية كما التقى بفريديريك إنجلز الذي أصبح رفيق عمره بعد ذلك وتولى الإنفاق عليه هو وعائلته .

وفي عام ١٨٤٧ انضم ماركس وإنجلز إلى العصبة الشيوعية - وهي جماعة دولية للاتحادات العمالية كان مقرها في لندن - واشتركا في كتابة الإعلان الشيوعي الأول الذي صدر في العام التالي ، في فترة كانت أوروبا تمر بمرحلة ثورية . واعتبر الإعلان أن تاريخ المجتمعات البشرية يمثل تاريخ الصراع بين السادة والعبود وأن جهاز الدولة هو الذي يقوم بإخضاع العمال لصالح أصحاب الأموال ، كما وضع برنامجاً سياسياً واقتصادياً يهدف إلى القضاء على النظام الرأسمالي ، وجاءت نهاية الإعلان على شكل دعوة موجهة إلى العمال في جميع أنحاء العالم « ليس للبروليتاريا سوى القيود لتفقدها ، ولهم العالم ليفوزوا به . أيها العمال في جميع البلاد ، اتحدوا » .

أنقضى ماركس بقية عمره في مكتبة المتحف البريطاني بلندن محاولاً تقديم تحليل للنظام الرأسمالي ومؤكداً حتمية سقوط هذا النظام والوصول إلى مجتمع خال من الطبقات . وفي خلال هذه الفترة عمل مراسلاً في لندن لجريدة « نيويورك ديلي تريبيون » . ولم يتمكن من إتمام أهم أعماله إذ صدر الجزء الأول من « داس كابيتال » (رأس المال) عام ١٨٦٧ ولم يتم نشر الجزءين التاليين إلا بعد موته بست سنوات عندما قام وإنجلز باستكمالهما . كما أوصى وإنجلز بكل أملاكه إلى أولاد صديقه ماركس .

وكان الأفكار الاشتراكية قد انتشرت في تلك الحقبة من الزمن بسبب المعاناة الشديدة التي عاشتها طبقة العمال في السنوات الأولى للثورة الصناعية ، وأصبحت تعاليم ماركس دستور الحركة الشيوعية في جميع أنحاء العالم خلال القرن العشرين . وتقوم نظرية ماركس في جوهرها على أن القيمة الاقتصادية الوحيدة تأتي نتيجة للعمل ، أما رأس المال المستمر فهو عاطل وعجز عن الإنتاج . ومع هذا فهو يحقق لصاحبه دخلاً أكبر بعد بيع السلعة . وكان ماركس يكره نفسه بسبب أصله اليهودي ، وبدا عليه منذ صغره ارتباط وثيق بالثقافة الألمانية كما كانت زوجته تنتمي إلى عائلة ألمانية أُرستقراطية .

أول ما كتبه في فرنسا كان مقالة بعنوان « عن المسألة اليهودية » انتقد فيها تفسير برونو باور - المفكر الألماني الهيجلي - في الموضوع نفسه . فقد ذهب باور إلى أن المشكلة اليهودية هي مشكلة دينية في جوهرها لا يمكن حلها إلا إذا تخلص اليهود عن اعتقاداتهم وذابوا في المجتمع الذي يعيشون فيه : « فطالما أن الفرد يشعر بأنه يهودي ، فإن الطبيعة المقيدة التي يجعله يهودياً سوف تتغلب على طبيعته الإنسانية التي تربط بينه كإنسان وبين باقي البشر ، وسوف تباعد بينه وبين غير اليهود » .

أما ماركس فلم ينال اليهودية من حيث كونها اعتقاداً دينياً وإنما من حيث كونها نشاطاً اقتصادياً واجتماعياً واعتبر أن اليهودية ما هي إلا بورجوازية رأس المال : « في سائلة قدرة اليهودي على التحرر يصبح السؤال ، ما هو العامل الاجتماعي الذي يجب التغلب عليه حتى يمكن إلغاء اليهودية؟ .. دعونا نناقش وضع اليهودي العادي وليس يهودي يوم السبت (أى اليهودي المتدين) كما يفعل باور ، يهودي الحياة اليومية . دعونا لا ننظر إلى سر اليهودي في دينه ، ولكن دعونا ننظر إلى سر دينه في حياة اليهودي الحقيقي . ما هو الشع الدينوي في اليهودية؟ الحاجة العملية والمصلحة الشخصية . ما هو الدين الدينوي لليهودي؟ السمسرة . وما هو إلهه الدينوي؟ النقود . عندما يتم التحرر من السمسرة والنقود وبالتالي التحرر من اليهودية الحقيقة ، سيكون هو تحرر عصرنا ، وإذا ما قامت منظمة اجتماعية بإلغاء شروط السمسرة وبالتالي إمكانية السمسرة ، فإن هذا سيجعل وجود اليهودي مستحيلاً . سيتبدل ضميره الديني مثل الضباب الخفيف ، وسط الهواء الحقيقي والضروري للمجتمع . ومن الناحية الأخرى إذا ما أدرك اليهودي بأن طبيعته العملية هذه عقيمة وعمل على إلغائها ، فإنه سيخرج نفسه من مسيرة السابقة ويعمل على تحرير الإنسان ويتحول ليواجه أكبر تعبير عملي عن الغرابة الذاتية ، ولذلك فنحن نجد في اليهودية عاماً معاذياً للمجتمع ، وهو عنصر قد وصل

إلى مستوى العالمي الحالى خلال التطور التاريخي - حيث شارك اليهود بحماس فى هذا الاتجاه الضار - والذى يجب أن يبدأ بالتفكير ، وفي التحليل النهايى فإن تحرر اليهود يكون هو تحرر الإنسانية من اليهودية » .

ويمضى ماركس الذى ينظر إلى اليهودية باعتبارها نوعاً من السلوك الاجتماعى ازداد انتشاره مع نمو المجتمع الرأسمالى : « ولقد حرر اليهودى نفسه بالفعل ، بطريقة يهودية . وعلى سبيل المثال فإن يهودى ثمينا ... هو الذى يقرر مصير كل الإمبراطورية (النمساوية) بقوته المالية . واليهودى الذى قد لا تكون له حقوق في أصغر ولاية مالية ، هو الذى يقرر مصير أوروبا . وبينما ترفض الاتحادات والنقابات قبول اليهود أعضاء بها ... فإن جرأة الصناعة (التي تسمح لهم باستثمار أموالهم فيها) تسخر من عناد أجهزة العصور الوسطى ... ولقد حرر اليهودى نفسه ليس لأنه حصل على القوة المالية فقط ، وإنما لأن النقود سواء عن طريقه أو عن غير طريقه .. أصبحت قوة عالمية ، وأصبحت الطبيعة اليهودية العملية هي الطبيعة العملية للأمم المسيحية . ولقد حرر اليهود أنفسهم بقدر ما أصبح المسيحيون يهودا .. ولقد أصبحت سيطرة اليهودية العملية على العالم المسيحى في أميركا الشمالية في تعبيرها الواضح والطبيعي ، أن تحول عملية التبشير بالإنجيل نفسها - وكذلك الدعوة المسيحية - فتصبح مجالاً للتجارة حيث يتعامل التاجر المفلس في الإنجيل تماماً مثلما

يذهب الكاهن الذى أصبح ثرياً للتعاملات التجارية ^١ . وينهى كارل ماركس بحثه عن المسألة اليهودية مطالبًا بالفائتها كظاهرة اجتماعية : « وعندما ينجح المجتمع فى إلغاء الصيغة الجوهرية لليهودية - أى السمسرة وشروط وجودها - سيصبح وجود اليهودى مستحيلاً .. وعلى هذا فإن التحرر الاجتماعى لليهودى سيكون هو تحرر المجتمع من اليهودية » .

كان كارل ماركس هو ملهم القادة البلشفيك الذين قاموا بالثورة فى روسيا ١٩١٧ وأطاحوا بالقيصرية ، وأقاموا مكانها النظام الشيوعى السوفيتى . ولكن سقوط هذا النظام وتحلله الكامل بعدما يزيد على سبعين عاماً من قيامه طرح أسئلة عده فى أساس الفكر الماركسي الذى قام عليه . فمع أن ماركس وافق على أن صراع الأضداد هو عملية مستمرة ، إلا أنه حاول إقامة نظريته الخاصة بالمجتمع الشيوعى الفاضل على أساس أنه مجتمع خال من الصراع ، ثم إن استبعاد رأس المال من عملية الإنتاج أدى إلى سيطرة البيروقراطية الحكومية وعدم الاهتمام بتلبية احتياجات الجماهير فى حياتها اليومية عند تنظيم الإنتاج .

والغريب فى الأمر أنه على رغم أن غالبية قادة الحركة الصهيونية - وهى التى تعبّر عن اليهودية السياسية - وإن كانوا من الماركسيين ، إلا

أنهم وإن رفضوا الاعتقادات الدينية اليهودية ، أقاموا حركتهم على جوهر واحد ألا وهو عزل اليهود في وطن خاص بهم عن باقي البشر . وعلى وعلى ذلك فإن أتباع ماركس اتبعوا عكس الطريق الذي نادى به أستاذهم ، فبدلاً من القضاء على اليهودية السياسية والإبقاء على الاعتقاد الديني ، عملوا على إلغاء الاعتقادات الدينية مع الإبقاء على الشخصية اليهودية ، بل وأكملوا ضرورة عزلتها .

أرض الميعاد . . . هل هي فلسطين أم الولايات المتحدة الأمريكية؟

قبل سقوط النظام السوفيتي - منذ سنوات - كانت الحكومة الإسرائيلية تطالب بالضغط على السلطة السوفيتية لمنح يهود روسيا حق الهجرة إلى إسرائيل التي تعتبر نفسها الوطن الطبيعي لكل اليهود . وكان النظام الشمولي السوفيتي لا يسمح للمواطنين بمقادرة البلاد إلا بتصریح خاص . ومع أن يهود الولايات المتحدة الأمريكية - الذين يزيد عددهم عن الخمسة ملايين - لا تقف أمام تحركاتهم أى عقبات مماثلة إلا أنهم لا يمارسون هذه الحرية في الهجرة إلى إسرائيل . وإذا نظرنا إلى حركة الهجرة بين إسرائيل والولايات المتحدة منذ قيام الدولة اليهودية ، لوجدنا أن عدد اليهود الذين هاجروا من إسرائيل إلى أمريكا يزيد على عدد اليهود الذين هاجروا من أمريكا إلى إسرائيل ويرجع تاريخ هجرة اليهود إلى أمريكا إلى اللحظة الأولى التي تم فيها اكتشاف هذه الأرض الجديدة ، فقد اصطحب كريستوفر كولومبوس بعض اليهود الإسبان والبرتغالي من المارانو

الذين قبلوا العمادة المسيحية - بعد سقوط دولة الأندلس - عند اكتشافه للقاربة الأمريكية في أواخر القرن الخامس عشر . وخلال المئة والخمسين سنة الأولى بعد اكتشاف الأرض الجديدة ، جرت هجرة المارانو إلى المناطق التي وقعت تحت سيطرة إسبانيا والبرتغال في أمريكا الجنوبية . وجاءت الهجرة الأولى إلى أمريكا الشمالية بعد ذلك خلال القرن السابع عشر ، وإن كانت الغالبية العظمى لم تأت إلا في الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر ونصف القرن الحالى . وكانت أول جماعة يهودية تستقر بأمريكا الشمالية - وت تكون من ٢٣ من المارانو - هي التي جاءت من البرازيل عام ١٦٥٤ وسكنت مدينة نيويورك التي كانت تعرف في ذلك الوقت باسم « نيو أمستردام » ، إذ كانت ما تزال تقع تحت سيطرة الهولنديين وكانت غالبية المهاجرين الأوائل من المارانو ، وهو الاسم الذي أطلق على اليهود السفارديم الذين عاشوا في الأراضي الإسبانية ، وعند تغييرهم بين التحول إلى المسيحية أو مغادرة البلاد - على أثر سقوط دولة الأندلس - قبلوا العمادة المسيحية .

وفي المرحلة الأولى كان عدد اليهود حوالي ثلاثة آلاف من مجموع السكان الذي بلغ أربعة ملايين . ولم يمض قرن من الزمان على وصول الجماعة الأولى إلا وكانت هناك ست جماعات من السفارديم في منطقة الاحتلال البريطاني بأمريكا الشمالية وكندا . وسرعان ما وصلت جماعات

الإشكناز من لندن وأمستردام . ويمكن تقسيم مراحل هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة إلى ثلاث موجات للهجرة كانت الموجة الأولى تتكون من السفارديم القادمين من إسبانيا والبرتغال ، وجاءت الهجرة الثانية - التي كان مركز استقرارها في نيو بورت التابعة لرود آيلاند - بعد ١٨٤٠ باليهود الألمان ، ثم جاءت هجرة الغالية العظمى من اليهود الإشكناز من شرق أوروبا منذ ١٨٨٠ .

وعند منتصف القرن السابع عشر كانت غالبية يهود العالم تعيش في منطقة وسط وشرق أوروبا ، ثم بدءوا في الهجرة شرقاً إلى روسيا وأوكرانيا وبولندا ورومانيا ، وغرباً إلى هولندا وبلجيكا والمانيا وفرنسا وإنجلترا ، وعبر الأطلسي إلى أمريكا ، وما شجع اليهود على الهجرة إلى أمريكا ، أنه في هذه الأرض الجديدة لم يكن هناك من يحاول اضطهادهم أو فرض القيود عليهم ، وأصبحوا يتمتعون بدرجة كبيرة من الحرية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، منذ اللحظة الأولى لوصولهم إليها . حتى إنه عندما قامت حرب الاستقلال الأمريكية - وكان عدد اليهود قد بلغ الألفين - سمح لهم بالاشراك مع باقى الأمريكيين فى الأعمال العسكرية .

وقامت حرب الاستقلال - في الولايات الثلاث عشرة الواقعة على المحيط الأطلسي - ضد قوات الاحتلال البريطانية عام ١٧٧٥ ، وانتهت بإعلان الاستقلال وتكون الولايات المتحدة الأمريكية . وعندما صدرت

لائحة فرجينيا لتنظيم الحرية الدينية عام 1785 ، كانت أول قانون في تاريخ اليهود يمنحهم المساواة الكاملة مع باقي الطوائف ، وهو ما أكدته الدستور الأمريكي بعد ذلك عندما منع اعتبار شرط الدين عند التقدم إلى الوظائف الحكومية . ونتيجة لهذه المعاملة الطيبة هرب اليهود الألمان الذين تعرضوا للاضطهاد - خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر - وهاجروا إلى أمريكا ، وانتشروا في معظم الولايات . وعندما بدأ جنون البحث عن الذهب في المناطق الواقعة على ساحل المحيط الهادئ ، اشتراك اليهود في المسيرة مع العديد من الأمريكيين غرباً إلى ولاية كاليفورنيا ، وسرعان ما انتشر اليهود الألمان بسرعة في مختلف الولايات وتفاعلوا بسهولة مع المجتمع الأمريكي وأصبحوا متحررين في اتجاهاتهم الثقافية والدينية .

وفي أمريكا - بسبب عدم تعرض اليهود للاضطهاد - انتشرت حركات دينية ليبرالية مثل « اليهودية الإصلاحية » . وكانت هذه أول حركة إصلاحية بدأت في المانيا كرد فعل للتغير الذي حدث في المجتمع الألماني - بعد الثورة الفرنسية . فمع التحولات التي حدثت في نظرية المجتمع الأوروبي إلى الأقليات الموجودة بداخله ، وإقدام الحكومات على منحهم حقوق المساواة الاجتماعية والسياسية ، ظهرت الحركة الإصلاحية داخل الطوائف اليهودية التي تطالب بالانفتاح على المجتمع والتخليص من طريقة السلوك الانعزالي القديمة . وعملت هذه الحركة -

التي رفضت قبول أبدية القوانين والصيغ الدينية - على تغيير اليهودية - سواء في شكل طقوس العبادة أو في الشائع نفسها . وكان بعض الرجال - وهم من غير الأحبار - لجأوا إلى تغيير شكل العبادة التي جعلوها تلقي بلغة البلد الذي يعيشون فيه بدلاً من العبرية ، وكذلك الغناء الجماعي مع مصاحبة الأورغون . وبالطبع فإنهم في هذا كانوا يحاكون قداس يوم الأحد المسيحي . وعمدوا كذلك إلى التخفيف من القيود المفروضة على اليهود يوم السبت (حيث لم يكن يسمح لهم القيام بأى عمل) ، وشروط الطلاق إذ جعلوا من حق الزوجة المطالبة بالطلاق في بعض الأحوال . كما أنهم أسقطوا من صلواتهم الجزء الذي كان يعبر عن انتظارهم العودة إلى « صهيون » وإعادة بناء معبد القدس .

وسرعان ما انضم بعض الأحبار الذين اعتبروا الديانة اليهودية في حالة تغير مستمر إلى هذه الحركة ، فهناك اختلافات بين يهودية التلمود والأحبار وبين ما كانت عليه يهودية التوراة والكهنة ، وعلى هذا يكون من الممكن - في رأيهم - إحداث أي تغييرات جديدة يقتضيها العصر الحديث . وفي مواجهة الحركة الإصلاحية - والتي جانب اليهودية الإرثونكية - ظهرت حركة أخرى عرفت باسم اليهودية المحافظة . بدأت كرد فعل للحركة الإصلاحية ، وانتهت إلى حل وسط بينها وبين الأرثوذكسيّة ، فهي قبلت إلغاء بعض قيود يوم السبت ، ووافقت على

إحداث بعض التغييرات في قوانين الطلاق ، وإن كانت احتفظت بقدسية التلمود وباستعمال اللغة العبرية في طقوس العبادة .

وعندما قامت الحرب الأهلية التي بدأت عام 1861 واستمرت أربع سنوات بين اتحاد الولايات الشمالية وولايات الجنوب التي انفصلت عن الاتحاد ، كان عدد اليهود في الولايات المتحدة بلغ مئة وخمسين ألفاً ، وأدى النمو الاقتصادي في المناطق الشمالية إلى ثراء عدد كبير منهم . إلا أن السبب الذي قفز بعدد المهاجرين اليهود إلى القمة كان المشاكل التي تعرض لها يهود روسيا على أثر مقتل القيصر . إذ وصل عدد المهاجرين اليهود - في الفترة بين 1881 و 1939 - إلى ما يزيد على ٢,٢٥ مليون مهاجر . ووصل عدد اليهود في أمريكا عند منتصف القرن الحالي إلى خمسة ملايين .

وأدّت هجرة اليهود الروس - الذين أصبحوا يمثلون الأغلبية الساحقة لليهود في أمريكا - إلى انتشار الحركة الصهيونية هناك . وبينما استطاع المهاجرون الجدد حياتهم على الأرض الأمريكية ، إلا أنهم استمروا في العمل على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وإن لم يكن في نيتهم الهجرة إليه . واستخدم اليهود الأمريكيون نفوذهم - بل ونفوذ الإدارة نفسها - في مساعدة اليهود في كل أنحاء العالم ، وكان لنفوذ يهود

أمريكا أثره الكبير في حصول الحركة الصهيونية على وعد بلفور ، ثم في صياغة شروط السلام في مؤتمر باريس عند نهاية الحرب العالمية عندما تقرر وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية .

تأسست المنظمة الصهيونية في مؤتمر دعا إليه تيودور هيرتزل - وهو من أصل روسي كان يعمل صحافياً في فيينا - بمدينه بازل السويسرية عام ١٨٩٧ . ومع أن هيرتزل كان يؤمن في بداية حياته بضرورة ذوبان اليهود في المجتمعات التي يعيشون بها ، إلا أنه تراجع عن هذا الرأي وأصبح يعتقد بضرورة تكوين وطن قومي يعيش فيه اليهود وحدهم . ومع ذلك لم يطالب بتكوين الوطن القومي في فلسطين ، وكان يبحث عن أرض بكر لا يسكنها أحد مثل الأرجنتين في ذلك الوقت ، إلا أنه بعد قيام الحرب العالمية الأولى وانعزال قيادة الحركة الصهيونية بشرقى أوروبا عن الغرب ، قام حايم وايزمان - ولم يكن له أى منصب بالمنظمة - بالحصول على أهم اعتراف من الحكومة البريطانية لصالح الحركة الصهيونية . وكان وايزمان هاجر من روسيا ليعمل في جامعة مانشستر البريطانية عام ١٩٠٦ ، وتمكن من إقامة علاقات صداقة مع بعض رجال السياسة البريطانيين لفكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، التي كانت ماتزال تحت السيطرة العثمانية . وكللت محاولات وايزمان بالنجاح عندما أصبح اللورد بلفور وزيراً للخارجية البريطانية - في وقت كانت

تركيا انضمت للحرب العالمية الأولى إلى جانب دول المحور - وكانت بريطانيا تستعد لغزو فلسطين .

صدر وعد بلفور على شكل رسالة وجهها آرثر جيمس بلفور - وزير الخارجية البريطاني - إلى لورد روتشارلز لتبلیغها للمنظمة الصهيونية ، جاء فيها : « تنظر حکومة صاحب الجلاله بعطف على تکوین وطن قومی للشعب اليهودی فی فلسطین ، وسوف تبذل جهدها لتحقيق هذا الهدف ». صدر فی لندن فی أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ۱۹۱۷ ، بعد أيام من قیام الثورة البلشفیة فی روسیا ، بينما كانت الحرب العالمية الأولى متزال فی أوجها . وعلى رغم التزام الحكومة البريطانية بالعمل على إقامة الوطن اليهودی فی فلسطین ، إلا أن الفضل الأکبر يعود الى يهود روسیا من الإشکناز ، سواء من بقی منهم فی الاتحاد السوفیتی أو من هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فی تحويل هذا الحلم إلى حقيقة .

المشكلة اليهودية بالنسبة إلى هتلر هي الجنس اليهودي نفسه!

ظهرت الحركة التي اصطلح على تسميتها بـ « معاداة السامية » في أوروبا عند نهاية القرن التاسع عشر ، بعد مرور قرن من الزمان على قيام الثورة الفرنسية وإعلان تحرير اليهود . فبينما كان المصلحون الأوروبيون يهدفون من إصلاح حال الأقلية اليهودية ورفع الاضطهاد عنها ؛ مساعدة اليهود في الخروج من عزلتهم والاندماج في المجتمع ليصبحوا مواطنين فيه ، إذا بالقيادة السياسية الصهيونية الجديدة تعلن أن اليهود غرباء عن بلدانهم ، وهم يت蓬ون لوطن آخر يعملون على إقامته في فلسطين . ولا شك أن الدعوة الصهيونية كان لها أثر كبير في استمرار شعور اليهود بالغربة في مجتمعاتهم ، كما أنها باعدت بينهم وبين المفكرين الأوروبيين .

وأول ما ظهر تعبير « العداء للسامية » في المانيا عام 1879 عندما استعمله الكاتب الألماني وليهلم مار للدلالة على الحركة المعادية لليهود

التي كانت انتشرت في أوروبا آنذاك . وبالطبع فإن العداء لليهود لا يعني العداء للسامية ، حيث إن الغالية العظمى من اليهود الآن لا تنتهي إلى الجنس السامي ، وإنما إلى الجنس القوقازي الإسكندري . وأصل كلمة « السامية » هم أبناء سام بن نوح . وكان انتشار مبادئ الثورة الفرنسية منذ نهاية القرن الثامن عشر أدى إلى حركة التحرر الفكري الأوروبي والمطالبة بإلغاء التفرقة بين المواطنين التي تقوم على أساس اختلاف الاعتقادات الدينية أو الأصل السلالى . ونتج عن هذا تغير كبير في حياة اليهود الذين استفادوا من نظام التعليم الحكومي في رفع مستوىهم الثقافي كما استفادوا من إلغاء القيود التي كانت مفروضة على نشاطاتهم الاجتماعية والسياسية لتحقيق مكاسب كبيرة في هذه المجالات . وبدلاً من ذويان اليهود في المجتمع - كما أراد المصلحون - فقد استمرّوا يعملون كجماعة مستقلة تهدف إلى تحسين وضعها الخاص داخل هذا المجتمع . وظلت تصرفات اليهود المالية تشير إلى رغبتهم في تحقيق مكاسب خاصة بهم ولو كان هذا على حساب المجتمع الذي يعيشون فيه ، وبينما كانت الحركة الصهيونية العالمية تؤكد أن اليهود يمثلون شعباً خاصاً ، وأنها عملت على إقامة وطن لهذا الشعب على الأرض الفلسطينية ، بدت تصرفات الجماعات اليهودية المنتشرة في البلدان الغربية وكأنها لا تعبأ بمصير الملايين من العمال الذي أصبحوا تحت رحمة حركة

الاستثمارات المالية في الأسواق والبورصات ، بقدر اهتمامها بتحقيق أكبر عائد من الربح الشخصي . فقد كان من مظاهر نمو المجتمع الصناعي الرأسمالي في بداية طوره - وكان لليهود بسبب نشاطاتهم المصرفية والتجارية السيطرة الغالبة في هذا المجال - أن يمر بمراحل أزمات وتهديد بإفلاس والبطالة ، بل وقيام الحروب بين الدول الصناعية في بعض الأحوال . وفي هذه الظروف ظهر وكان اليهود لم يهتموا إلا بتحقيق مصالحهم الشخصية .

إزاء هذا الوضع - وبدلاً من محاولة معالجة الموضوع على أساس اجتماعي أو اقتصادي - انتشرت موجة جديدة في الدول الأوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر -خصوصاً في النمسا والمانيا - معادية لليهود الذين أصبحوا يعتبرون من أهم أسباب مشاكل المجتمع الجديد . وأخذت هذه الموجة موقفاً عنصرياً إذ أنها لم تعاد اليهود على أنهم يمثلون طائفة دينية ذات اعتقادات مختلفة ، أو طائفة اجتماعية لها سلوك ضار ، وإنما على أساس أنهم ينتهيون إلى عنصر مختلف غير العنصر الآري الذي تنتهي إليه غالبية الشعوب الألمانية . فساد الاعتقاد بأن اليهود هم أشارار بطبيعتهم ، وهدفهم النهائي هو القضاء على الجنس الآري والسيطرة على العالم . ولتحقيق هذا الهدف فإن اليهود - بحسب هذا الاعتقاد - يهددون إلى السيطرة على المراكز المهمة في الحياة السياسية عن طريق

استخدامهم نفوذهم المالي ، فيعملون على إشعال الحروب والتحريض على الثورات التي كانت الحركة الثورية الماركسية من أهمها . وعلى هذا فإن هتلر - عندما أصبح مسؤولاً عن الحكم في ألمانيا منذ ١٩٣٣ - عمل على إبعاد اليهود تماماً عن الحياة العامة في البلاد .

يقول هتلر أنه أصبح معادياً لليهود عندما اكتشف دورهم في تجارة الرقيق الأبيض ونفوذهم في صحافة ثيفينا التي - في رأيه - كانت تدعوا إلى سياسة معادية للقومية الألمانية . وكذلك دورهم في الحركة الثورية البلشفية التي انتشرت في أوروبا آنذاك . وفي الحقيقة كان هناك عدد كبير من اليهود في قيادة الحركة الشيوعية التي كانت تعمل على سيطرة البلشفية على ألمانيا . وكانت فكرة هتلر عن المسألة اليهودية أنها مظهر من مظاهر صراع الأجناس للسيطرة على العالم ، واليهود في هذا الصراع إنما يمثلون عناصر الشر الكامل في مواجهة الجنس الآري ، ولذلك يجب التخلص منهم .

يكتب هتلر عن رأيه في المشكلة اليهودية في مذكراته التي نشرت عام ١٩٢٤ بعنوان « كفاحي » : « عندما أدفع عن نفسي في مواجهة اليهود فأنما إنما أعمل من أجل رب » . وهو يرفض فكرة تعبيد اليهود لخلاصهم إذ يرى أن اليهودية جنس وليس اعتقاداً دينياً .

ويظهر من مذكرات هتلر في المرحلة الأولى لحياته السياسية - كتبها أوتو، أحد مساعديه المقربين منه ، قبل موته في أحد معسكرات الأسر البريطانية ونشرتها جامعة ييل الأمريكية بإشراف هنري تيرنر - مدى شعور العداء الذي كان الزعيم النازي يكنه لليهود : « ما هي الطبيعة الحقيقية للحياة الانعزالية الغريبة التي يعيشها اليهود ؟ ذلك أنهم يعيشون حياة غريبة . فهم لا يعيشون - كباقي الشعوب - داخل الحدود الواضحة للبلاد ، وإنما هم يعيشون داخل أُم أخرى ، نباتات غريبة بين النباتات الأخرى . وهذه الحقيقة لا تثير الاعتراض في حد ذاتها ، بل على العكس فإن تنوع النباتات ينفع التربة أكثر ، فهو يحيى الصورة ويزيد الإنتاج .. وبين الحيوانات فإن الأقوى والأكثر صحة يكون أقدر على الاستمرار والكافح من أجل الحياة . وفي خلال هذا المجهود - بالطبع - يحدث أن واحداً يلتهم الآخر .. يوجد في عالم النبات وعالم الحيوان كائنات نسميتها طفيلية .

ومن طبيعة الطفيليات أنها لا تستخدم القوة الشخصية مثل الآخرين للحصول على الغذاء ، فإن قوتها الأساسية ... هي أن تعمل على استخدام عمل الآخرين من أجل أن تحيى هي ، على قدر الإمكان ، بدون عمل واليهود - في عالم الإنسان - هم هذا النوع الطفيلي

ويضيف .. لقد استولى اليهود في أمريكا تقريراً على كل المراكز المهمة وهم حفروا السيطرة والسلطة ، وتحقق أملهم بالفعل في الولايات المتحدة ، كل الأمم ستخضع لكم ! في هذه الحالة فإن اليهودي الأمريكي لن يترك أميركا وفي الواقع فإنه من الصعب علىَّ تصور أن يكون اليهود جادين بخصوص دولة يهودية .. هل رأيت أبداً غابة تتكون في كليتها من الطفيلييات ؟ .. ليست فلسطين مكاناً لمستعمرة يهودية . فماين المناطق الخبيطة التي يمكن أن يتم ابتلاعها ؟ ... لهذا فإن فكرة دولة يهودية هناك - في توقعاتي - لها معنى مختلف .. بعد الحرب (العالمية الأولى) ظهر كما لو كان اليهود - بسبب الحرب - قد صارت لهم اليد العليا في العالم الأبيض . وبدا الوقت مناسباً لظهور اليهود على أنهم الأسيد . وفي المانيا كما هو واضح الآن (في أوائل الثلاثينات) ظاهر بشكل لا يمكن إنكاره . وبعد أن ينبعج (اليهودي) في الإمساك بالقيادة في كل الأمم البيضاء ، سوف يصبح كل ما تبقى له - حتى يسيطر حقاً على العالم هو تأسيس مركز القيادة . وسيكون هذا هو الدولة اليهودية ، وقبل هذا لن يكون مثل هذه الدولة أى معنى ، بل سيكون خطأ . والحقيقة التي ثبتت صحة تفكيري أن هذه الدولة ستكون في فلسطين أرض الميعاد ، المصدر الذي منه بدأت الهجرة - منذ ثلاثة أو أربعة آلاف عام - لغزو العالم . كما أنه يثبت أن كفاحنا ومهمنا - التي

نعتقد نحن فقط أنها كفاح ومهمة من أجلmania - قد فهمها اليهود العالم ، كما لو كانت موجهة ضدتهم في مجموعهم ، ضد اليهود كيهود ولهذا فهم حيالها تكون لهم القوة ، فسوف يستخدمونها لشن عملنا ومنعه .

وأصبح هتلر رئيساً للحزب القومي الاشتراكي الألماني وهو في الواحد والثلاثين ثم رئيساً للدولة الألمانية منذ ١٩٣٢ . ولما كان هتلر يعتقد أن اليهود هم سبب كل المشاكل التي تعاني منهاmania ، سواء من التهديد بالثورة البلشفية إلى الهزيمة في الحرب العالمية ، فقد توصل إلى أن الحل الأمثل هو ترحيلهم خارج البلاد الألمانية ليجعل سياسة الحزب النازي تهدف إلى تخلصmania من سكانها اليهود- الذين بلغوا حوالي نصف مليون - عن طريق تهجيرهم خارج البلاد . ولكن بسبب عدم رغبة الغالبية العظمى من الدول الغربية في استقبال اليهود الألمان في بلادهم في وقت زادت الأزمة الاقتصادية في كل مكان ، لم يكتب للخطوة النازية النجاح .

ومنذ اللحظة الأولى لتولي هتلر الحكم كانت سياساته تهدف إلى إبعاد اليهود عن المراكز المهمة سواء في الجهاز الحكومي أو في الكيان الاقتصادي كما تم منع أطفال اليهود من دخول المدارس الحكومية ، وتم

تسجيل أملاك اليهود وإجبارهم على بيع أعمالهم ومصانعهم للألمان .
وفي عام ١٩٣٥ أصدر هتلر ما عُرفَ باسم « قوانين نورمبرج » التي
نصت على منع اليهود من الحصول على الجنسية الألمانية أو التزاوج مع
الجنس الألماني . والغريب في الأمر أن بعض دول شرق أوروبا أخذت السياسة
الألمانية المعادية لليهود وطبقها في بلاده ، مثل المجر ورومانيا وبولندا ودول
البلطيق استونيا ولاتفيا ولاتفيا بل تأثرت بهذه السياسة بلدان غربية كذلك
مثل فرنسا وإيطاليا .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ وإغلاق الحدود ، أصبحت
هجرة اليهود أكثر صعوبة من ذي قبل ، بل أن عدد اليهود الخاضعين
للحكمية النازية تزايد بشكل كبير بعد احتلال بولندا - التي كان يوجد
فيها مليونان من اليهود - كما كان هناك نصف مليون موزعين في
بلدان غربي أوروبا . وأنشأ النازيون معسكرات في بولندا لإقامة اليهود
تمهيداً لترحيلهم ، وشكلوا لجاناً من اليهود أنفسهم لإدارة شؤون حياتهم
اليومية ، ومات منهم عدد كبير بسب سوء التغذية وانتشار الأمراض .

بدأت الحرب العالمية الثانية عندما اكتسح الجيش الألماني بولندا عام
١٩٣٩ ، واستمر هتلر في تحقيق انتصاراته العسكرية لمدة عامين فاحتل
الدنمارك والنرويج وفرنسا ودول البلقان وجزءاً من شمال أفريقيا ، قبل أن

يهاجم الأرضي الروسية . وجاءت نقطة التحول عام ١٩٤١ عندما بدأ الاتحاد السوفيتي هجومه المضاد على القوات الألمانية في الوقت الذي قررت الولايات المتحدة الأمريكية دخول الحرب إلى جانب الحلفاء . وانتهت سياسة هتلر بمجازرة بشرية للملايين من أبناء شعوب العالم ، وعندما اقترب الجيش السوفيتي من برلين أقدم هتلر على الانتحار - هو وعشيقته إيفا براون - داخل خندق القيادة الألمانية ، في نهاية نيسان (أبريل ١٩٤٥) .

ماذا بعد دولة إسرائيل والوطن القومي لليهود؟

كان للمعاملة السيئة التي تلقاها يهود أوروبا لمدة اثنتي عشر عاماً ، على أيدي الحركة النازية (١٩٣٣ - ١٩٤٥) أثر كبير في نفوس معظم يهود العالم فهم أصبحوا في حال من الرعب الدائم من احتمال أن تمتد حركة « المعاداة للיהودية » يوماً ما ، إلى بلدانهم . واستغلت الحركة الصهيونية هذا الشعور بعدم الاستقرار لاقناع عدد كبير منهم بالهجرة إلى فلسطين استعداداً لإقامة الوطن القومي هناك ، تنفيذاً لوعده الحكومة البريطانية .

وكانت الفكرة وراء هذه الهجرة أن خلاص اليهود من اضطهاد العالم المسيحي لهم لن يتم إلا إذا استطاعوا تكوين دولة خاصة بهم يكونون هم غالبية المواطنين بها ، وبالتالي هم الحاكمون والمحكومون وحصلت الحركة الصهيونية على أكبر نصر لها عندما أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ قرارها بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، حتى تناح لهم

فرصة إقامة الوطن القومي هناك ، على أثر انتهاء الحماية البريطانية في العام التالي .

وكانت غالبية المهاجرين الأوائل إلى فلسطين منmania وروسيا ودول أوروبا الشرقية ، من اليهود الإشكناز .

وساعدت عوامل عدة في نجاح الحركة الصهيونية في الحصول - ليس فقط على تأييد غالبية الجماعات اليهودية المنتشرة في العالم - بل وعلى تأييد غالبية الرأى العام العالمي لقضيتها .

وأهم هذه العوامل أسلوب الدعاية الإعلامية ، فقد ظهر سلاح الإعلام واستخدام العامل النفسي للشعوب ، كأسلوب مهم من أساليب الصراع خلال الحرب العالمية الثانية سواء من جانب الحزب النازي أو من جانب الحلفاء . ولما كان ادولف هتلر زعيم النازية يرى أن عدوه الرئيسي هو اليهودية والشيوعية ، فقد ركز الإعلام النازي دعايته ضد هذه القوى ، بل إن الفكر النازي العنصري كان يرى أن الخطر الشيوعي - سواء متمثلا في الاتحاد السوفيتي أو في الحركات الشيوعية الثورية فيmania - ما هو إلا مظهر من مظاهر المؤامرة اليهودية التي تهدف إلى السيطرة على مراكز السلطة في العالم . ورداً على هذا الاتجاه فإن الشيوعية العالمية والعالم الغربي ركزا على العداء للיהودية باعتباره يمثل اتجاهها عنصريا

معادياً للديمقراطية الغربية ، واستخدمت التنظيمات الصهيونية هذه الدعاية ليس فقط ضد النازية الألمانية - وإنما كذلك في مواجهة الرأى العام المسيحي كله ، متهمة إياه بالتقسيم في حماية اليهود ، وبالمسؤولية الجماعية عن الاضطهاد الذى يتعرض له اليهود . وأصبح « الهولوكوست » رمزاً لهذا الاضطهاد ، الذى جعلته الحركة الصهيونية بمثابة « عقدة الذنب » في ضمير العالم المسيحي . وبدلًا من اتهام الكنيسة للمسيحي في العصور الوسطى بالمسؤولية عن دم المسيح ، أصبح « الهولوكوست » يمثل اتهام الحركة الصهيونية للعالم الغربى كله بالمسؤولية عن مقتل ملايين من اليهود . ولا شك في أن هذا الأسلوب كان له أكبر الأثر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في حصول دولة إسرائيل على عطف وتأييد العالم المسيحي غير المشروط في معظم الأحيان .

أما العامل الثاني فهو قرار الدول العربية بدخول جيوشها إلى فلسطين في محاولة لمنع قيام الدولة اليهودية ، مما ساعد الحركة الصهيونية على إظهار الدولة الوليدة بمظهر الضعيف المعتدى عليه في مواجهة « هولوكوست إسلامي جديد » ! وهكذا تحالفت القوى العالمية في تقديم أنواع المساعدات لحماية الدولة الإسرائيلية الجديدة ، بل ولماوتها في تجاوز الحدود المرسومة لها في قرار التقسيم ، والاستيلاء على مجمل الأرض الفلسطينية . ولا شك في أن فشل السياسة العربية في إقامة كيان

سياسي عربي في الجزء المخصص للشعب الفلسطيني في قرار التقسيم ساعد على إظهار هذه الأرض وكانتها أصبحت مباحة لمن يضع يده عليها . وكانت النتيجة أن قرار التقسيم - على رغم أنه هو الذي أعطى شرعية الوجود للوطن اليهودي - لم يعد يعتبر أساساً للتفاوض عند وضع شروط السلام النهائي بين العرب واليهود .وليست الحركة الصهيونية بحركة دينية ، وإنما تمثل إطاراً سياسياً لتجتمع الطوائف اليهودية من أجل هدف واحد ، هو إقامة الوطن القومي لليهود . ولقد ثار خلاف كبير في المؤتمر الصهيوني حول الأهداف الرئيسية للمنظمة ، وكانت غالبية قيادتها من الملحدين والشيوخين ، وتم الاتفاق على نقطة جوهرية واحدة تجمعهم هي اعتبار اليهود هم الشعب المختار - ولا يهم من الذي اختاره - وأن اليهودية هي ارتباط سلالي وثقافي وجذري . ويميز اليهود عن غيرهم من الأقوام .

وكما أراد مؤسسو الحركة إيقاف ذريان اليهود في مجتمعاتهم أولاً عند انتشار مبادئ الثورة الفرنسية بالمساواة بين المواطنين بصرف النظر عن اعتقاداتهم ، ثم بعد انتشار مبادئ الديمقراطية الليبرالية في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فاليهود الآن شعب منفصل وهم جميعاً - على الأقل من الناحية النظرية - يتبعون إلى دولة إسرائيل اليهودية مهما كانت أوطنهم . ولم تكن مصادفة أن يقع اختيار قادة المنظمة الصهيونية على اسم

« إسرائيل » لدولتهم الجديدة التي أقاموها على أرض فلسطين ، ذلك أن الوعد الذي جاء بالتوراة جاء باسم إسرائيل ، كما وأن قوم إسرائيل هم الذين دعاهم موسى إلى عبادة رب واحد . وارتدى أبناء إسرائيل عن العبادة الموسوية بعد موت رسولهم عند نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وظل أحفاد أسباط إسرائيل يعبدون الآلهة الكنعانية والفينيقية ثمانية قرون في أرض كنعان ، بعد موت موسى ، إلى أن قام نبوخذ نصر - الملك البابلي بسي بقاياهم إلى بابل خلال القرن السادس السابق على الميلاد ، وخلال السبي البابلي أعاد الكهنة كتابة كتب توراة موسى الخمسة ، وأقاموا الديانة اليهودية . وفي القرن التالي جاء الكاهن عزراً إلى فلسطين حاملاً معه نسخة من التوراة قرأها أمام الملأ . وكانت يهودية الكهنة تقوم على قراءة التوراة في معبد القدس وتقديم الأضحية .

وعندما دمر الرومان معبد القدس عام 70 ميلادية وذبحوا جميع الكهنة ، بدأ الأحبار (الفقهاء) اليهود في التبشير بالتوراة الشفهية التي قالوا أنها وصلتهم عن طريق موسى ، والتي جمعت فيما بعد في كتابات التلمود . وأقام الأحبار الديانة الربانية التي تقوم على دراسة التلمود والقيام بعض طقوس الصلاة .

واستطاع الأحبار الإبقاء على عزلة اليهود في غربتهم عن المجتمعات التي هاجروا إليها .

وكان أول عهد لليهود بالفلسفة والمدارس الفقهية في أيام الدولة الإسلامية ، سواء في بغداد ودمشق أو في بلاد الأندلس ، وتأثير الفكر اليهودي بالمذاهب الإسلامية إلى حد كبير . إلا أن حدثاً خطيراً كان له أهمية كبيرة في تاريخ اليهود تم بعيداً عن مراكز الأبحار وفي غيبة عنهم ، في بلاد القوقاز بجنوب روسيا . فهناك قام ملك الخزر خلال القرن الثامن باعتناق الديانة اليهودية وتبعه في ذلك غالبية شعب القوقاز ، ولما سقطت مملكة الخزر في القرن العاشر انتشر اليهود الخزر إلى رومانيا وبولندا وكيف في روسيا . وأصبح اليهود الخزر - الذين عرفوا بعد ذلك بالإشكناز - هم الغالبية العظمى من يهود العالم ، بينما كان السفارديم الذين هاجروا من إسبانيا والبرتغال عند سقوط دولة الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر والبابليين الذين عاشوا في بلاد العراق يمثلون أقلية في الكيان اليهودي الجديد .

وفي الواقع فإن اليهود فوجئوا بوجود ملايين من الأقوام القوقازية التي تدعى الانتماء إلى دينهم . وظل الفريقيان متباعدان مدة طويلة من الزمان . ولا زال حتى الآن من لا يعتبر الإشكناز - على أساس سلالي - من اليهود . وكانت نقطة حاسمة في حياة اليهود ظهور شابتاي زيفي خلال القرن السابع عشر الذي ادعى أنه هو المسيح المنتظر لليهود ، وتبعه غالبية يهود العالم بما في ذلك أighborsهم . ثم فاجأ زيفي اتباعه بإعلانه

الدخول في الديانة الإسلامية ودعوته أتباعه إلى سلوك الطريق نفسها . وكانت صدمة إسلام مسيح اليهود هي بداية الطريق إلى انهيار الاعتقادات اليهودية الربانية التقليدية ، وظهرت مدارس ومذاهب جديدة بعد ذلك بينهم . ثم جاء عصر التحرر الأوروبي ليقدم فرصة لليهود بالخروج من عزلتهم والاندماج في المجتمعات الليبرالية الحديثة ، شريطة التخلص عن فكرة الشعب المختار . ولا شك في أن فكرة الشعب المختار أو « السويرمان » هي فكرة عنصرية في جوهرها ، فمن الممكن الاعتقاد بتفاضل بعض الناس نتيجة لذكائهم أو لعلمههم أو لموهبتهم أو لإيمانهم أو تضحياتهم ، ولكن أن يكون هناك قوم يفضلون الآخرين بفضل انتقامتهم السلالي فهذا شيء يصعب قبوله في العصر الحديث . ومع هذا فإن الفكرة الصهيونية اختارت هذا المبدأ لتجعله محوراً لتجميع اليهود ومنعهم من الذوبان في مجتمعاتهم .

فاليهودية - بحسب النظرية الصهيونية - ليست ديانة ، وإنما هي نوع من البشر متفوق بسبب انتمامه على باقي الأقوام ، كان اختيار اسم « إسرائيل » بدلاً من « يهودا » للدولة اليهودية في فلسطين يهدف أساساً إلى تثبيت الاعتقاد بأن اليهود ينتمون إلى بنى إسرائيل الذين وردت قصتهم في الكتب المقدسة ، مع أن غالبية يهود إسرائيل من سلالة خزر القوقاز ، لا تنتمي سلالياً إلى يعقوب ولا الجنس السامي ولا أهل المنطقة !

فهرست

الصفحة	الموضوع	مقدمة
٥		- مقدمة
٧	- الإمبراطورية العثمانية ملجأً للطوائف اليهودية الهاربة من إسبانيا	
١٧	- كيف أصبح الإشكناز هم « الشعب المختار » بدلاً من بنى إسرائيل ؟!	
٤٥	- مارتن لوثر بين إستبداد الكنيسة الكاثوليكية وتعنت اليهود	
٣٥	- بزوغ عصر النهضة الأوروبية	
٤١	- ظهور الأوراق المالية والبنوك بدعم موقف الطوائف اليهودية	
٤٧	- الركود الفكري في السلطنة العثمانية أصاب الجماعات اليهودية رغم ازدهارها الاقتصادي	

الصفحة	الموضوع
٥٣	- شابتاى زيفى : « مسيح » اليهود الذى اعتنق الإسلام !
٦١	- كيف أصبحت بولندا الموطن الرئيسى لليهود الإشكناز ؟
٦٩	- اليهود من تحرير صورة الإنسان إلى إباحة صور الأنبياء !
٧٧	- إنهايار سيطرة أحبّار التلمود أمام الدعاة الحسيديم المجددين
٨٧	- مبادئ الثورة الفرنسية تهدّد ياذابة اليهود في المجتمع
٩٧	- امتحنات الدينية والسياسية لاتهمات التضخيم بالأطفال
١٠٥	- هجرة اليهود إلى مصر في عصر محمد على

الموضوع	الصفحة
- الفلسفة اليهودية الحديثة ترفض نكرة الشعب المختار	١١٣
- ظهرت جمعيات «حبات صهيون» وبداية حركة اليهودية السياسية	١٢١
- إنتقال قيادة الحركة الصهيونية إلى بريطانيا العظمى	١٢٩
- كارل ماركس بين المسألة اليهودية والخلاص الشيوعي	١٣٧
- أرض الميعاد : هل هي فلسطين أم الولايات المتحدة الأمريكية ؟	١٤٧
- المشكلة اليهودية بالنسبة إلى هتلر هي الجنس اليهودي نفسه ؟	١٥٥
- ماذا بعد دولة إسرائيل والوطن القومي لليهود ؟	١٦٥

رقم الإيداع ٩٤/١٠٩٠٦
I.S.B.N. 977 - 09 - 0251 - 9

تم عمل التجهيزات الفنية بمصر لخدمات الناشرين
٩ شارع ٨٦ ثكنات المعادى - القاهرة ت: ٣٥١٦٧٤٣

